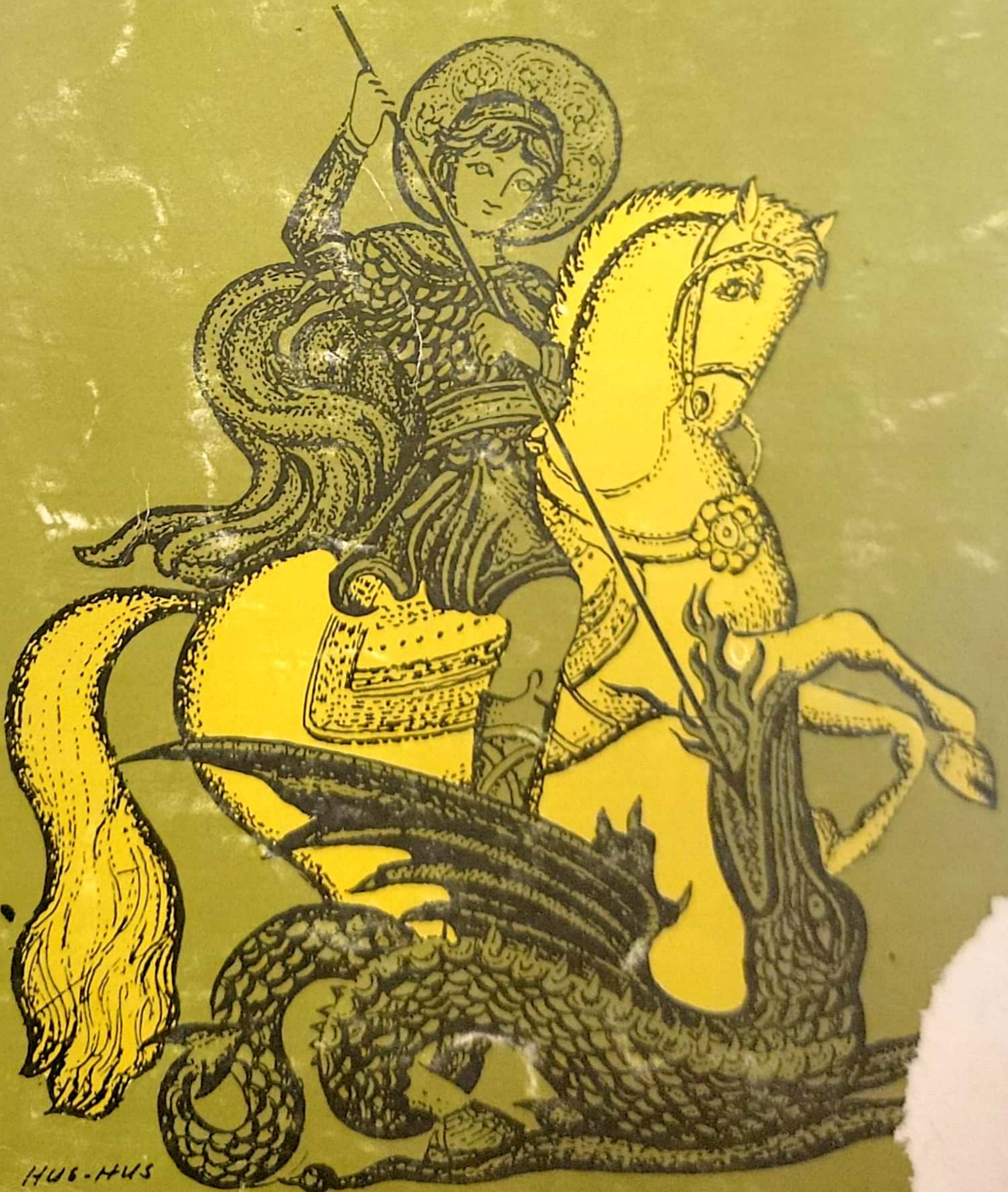
أساطير الخصب القديمة
والمعتقدات الشعبيّة في سورية

ف : د. حسني حدّاد
ترجمة : أحمد الهندي



العنوان الأصلي

Georgic Cults And Saints
in The Levant

اخراج : سهام بطرس
طبع في مطابع دار العلم
التنضيد الضوئي : مكتب الفيحاء ـ دمشق

الطبعة الاولى ١٩٨٩
دار الكندي
للترجمة والنشر والتوزيع
الجمهورية العربية السورية
حمص ص. ب ١٦١٠ ـ دمشق ص. ب ٣٢١٤
٢٠٠٠ / ٣ / ١٩٨٩

العنوان الأصلي

Georgic Cults And Saints
in The Levant

أساطير الخصب القديمة والمعتقدات الشعبيّة في سورية

تأليف: د.
حسني حدّاد

ترجمة
أحمد الهندي

تقديم مراجعة
فراس السوّاح



الدكتور حسني حداد

* من مواليد سورية.
* انهى المرحلة الدراسية الثانوية في لبنان ثم رحل إلى الولايات المتحدة الامريكية.
* حصل على شهادة الجامعة في التاريخ من المعهد الشرقي بجامعة شيكاغو عام ١٩٥٤.
* حصل على شهادة الدكتوراه في لغات وحضارات الشرق القديم من جامعة شيكاغو عام ١٩٦٠.
* قام بتدريس مادة تاريخ وحضارة العرب والاسلام في جامعة شيكاغو ١٩٥٦ - ١٩٥٩.
* يعمل حالياً استاذاً للتاريخ في جامعة سانت زفير بشيكاغو.
* معروف لدى قراء العربية من كتابه القيم «في الموسيقى السورية» الذي صدر عام ١٩٥٣، ومن مقالاته المتفرقة في المجالات الفكرية العربية.

مقدمة عامة
في معتقدات وطقوس الخصب

منذ القدم، حير الانسان مشهد تغير الطبيعة وتتابع الفصول، وحثه على التأمل في العوامل الفاعلة خلف دورة الطبيعة المنتظمة التي ترتبط بها حياته ويتوقف عليها معاشه. في البداية اعتقد الانسان ان باستطاعته درء الجفاف وجلب الخيرات عن طريق تدخله في مسار الطبيعة بالسحر والطقس، فكان لكل جماعة «صانع مطر» يستنزل الغيث ويحفظ تتابع الفصول. وشيئاً فشيئاً، أدرك الانسان، أن حركة الطبيعة تنساب في معزل عن ارادته وتدخله، وانها تنقاد إلى قوى أعظم من قوته، فولدت

المعتقدات الخصبوية التي ترى في حياة النباتات وذبولها فموتها
فانبعاثها الجديد، تبدٍ لدورة حياة كائن إلهي يموت في كل عام
ويبعث من جديد في تكرار أبدي.

وهكذا تم تخطي المعتقد السحري القديم ومزجه بمعتقد
ديني. فرغم ان الانسان في مرحلته الجديدة قد عزى تغيرات
الطبيعة إلى تغيرهو من صميم حياة إله الخصب،
إلا أنه أبقى على شيء من اعتقاده القديم بأن طقوسه
السحرية ضرورية لشد أزر قوى الحياة في مقابل قوى الموت،
وإلى عون إله الخصب على البعث الجديد. وقد اتخذت
الطقوس السحرية في هذه المرحلة طابعاً تمثيلياً دراميا. وبما أنه
وفق النظرية السحرية القديمة يستطيع الانسان إحداث النتائج
المرجوة من خلال عملية تقليدها (كان يرسم الحيوانات مسمرة
من الخوف قبل الخروج لصيدها) فان دفع دورة الفصول وحث
الربيع على القدوم يتم من خلال تمثيل دراما زواج وموت وبعث
إله الطبيعة، والقيام بالطقوس المرافقة لكل مرحلة، كالمشاركة
بافراح الزواج أو النواح على الإله الميت أو الاحتفال بقيامته، في
تعاطف يتجاوز حد التمثيل إلى الانخراط في فعل حقيقي يلتحم
معه المشاركون مع موضوعهم بطريقة تهبط بالأسطورة إلى مجال
الواقع المعاش. وبما أن شتى مظاهر الحياة الحيوانية والنباتية
والانسانية كانت في ذهن الانسان القديم تبديات لجوهر واحد،
فان الطقس الدرامي كان يشتمل أيضاً على الممارسات الجنسية
بين الرجال والنساء من أجل تحريض التكاثر بين القطعان التي

تستفيد منها الجماعة، والمزروعات التي تقتات عليها، والاكثار من نسل النساء.

ولعل معتقدات الخصب وآلهته وطقوسه قد نشأت أول أمرها في الشرق القديم، حيث عرفت الزراعة لأول مرة في تاريخ الانسان، ونشأت المستقرات الثابتة الأولى التي يعتمد اقتصادها بشكل أساسي على الزراعة. الأمر الذي يدل عليه قوة ورسوخ معتقدات الخصب في حضارات الشرق القديم وسيطرتها على القطاع الأعظم من الحياة الدينية للانسان القديم في هذه المنطقة.

ورغم التنويعات في تفاصيل الطقوس واسماء الآلهة من مكان إلى آخر، فان جوهر المعتقد واحد، وكذلك الخطوط العامة للممارسات الطقسية التي تتركز حول إله واحد ذي اسماء متعددة. فهو دوموزي عند السومريين وتموز عند البابليين وأدونيس عند الفينيقيين، وبعل ـ حدد عند الأراميين والكنعانيين وآتيس في ثقافات آسيا الصغرى. كما ينتمي اوزوريس المصري إلى هذه المجموعة مع فوارق واضحة في معتقده وسيرة حياته وطقوسه، مما تمليه طبيعة الحياة الزراعية المختلفة في وادي النيل. ولسوف نحاول فيما يلي القاء الضوء على شخصية إله الخصب في معتقدات الشرق القديم من خلال ثلاثة نماذج هي:
١ ـ دوموزي (تموز) ٢ ـ أدونيس ٣ ـ بعل ـ حدد.

تساعدنا النصوص السومرية الغزيرة، على رسم أوضح صورة لاله الخصب الشرقي في معتقده ودورة حياته وطقوسه. فدموزي هو

القدرة الإلهية التي تسكن في الحياة النباتية، والتي تسند دورة حياتها تتابع الفصول واستمرار الحياة الزراعية. تبدأ دورة دموزي السنوية بغرام مستعر بينه وبين الإلهة «إنانا» روح الخصوبة الكونية. والنصوص السومرية التي تصف غرام الإلهين ولقاءاتهما كثيرة، نقرأ في احدها على لسان إنانا:

في الليلة الفائتة عندما، أنا الملكة، كنت أشع بالنور
في الليلة الفائتة عندما، أنا ملكة السماوات، كنت أشع بالنور
عندما كنت أشع بالنور وأرقص
عندما كنت أغني لحلول المساء.
هو التقاني، هو التقاني
سيدي دوموزي التقاني
وضع يده في يدي
واسند رقبته إلى رقبتي
الكاهن الأسمى متهيىء للحضن المقدس
سيدي دوموزي متهيىء للحضن المقدس
والزرع والنبت ناضج في حقله(1)

وبعد الغرام الذي يبلغ أوجه عند اكتمال فصل الربيع يأتي زواج الحبيبين. وها هو دوموزي يقرع باب منزل إنانا طالباً يدها

الراعي أتى بالزبدة إلى البيت الملكي
دوموزي أتى بالزبدة إلى البيت الملكي
وأمام الباب نادى:

«افتحي الباب سيدتي، افتحي الباب.»
أم إنانا قالت لابنتها:
«أي بنيتي، الفتى سيكون لك أباً،
أي صغيرتي، الفتى سيكون لك أماً،
فافتحي الباب، سيدتي، افتحي الباب.»
إنانا، نزولاً عند رغبة أمها
استحمت وتضمخت بالزيت العطر
وضعت عليها الرداء الملكي الأبيض
وجهزت بائنتها
رصفت حبات عقدها اللازودي حول عنقها
وبيدها حملت ختمها
بينما دوموزي، فارغ الصبر، عند الباب
وعندما فتحت له المصراع
شعت من داخل المنزل - أمامه
كضوء القمر
- «فرجي، قرن الهلال..
قارب السماء..
ملئه رغبة كالقمر الجديد،
وأرضي متروكة بلا حرث.
فمن لي، أنا إنانا
بمن يحرث فرجي
من لي بمن يفلح حقلي

من لي بمن يفلح أرضي الرطبة»
- «أي سيدتي العظيمة،
أنا، دوموزي الملك سأحرث لك فرجك»
- «إذن، احرث فرجي، يارجل قلبي
احرث لي فرجي
في حضن الملك، ارتفع الارز
ونمى الزرع من حولهما عالياً
وارتفع القمح من حولهما سامقاً
وازهرت الحدائق(٢)

تبدو إنانا في هذه النصوص ومثيلاتها كفتاة صغيرة غضة قليلة التجربة تضج بالرغبة، ودوموزي كفتى غر يضطرم بحب الشباب الأول. وفي ذلك كله تعبير، على مستوى الاسطورة، عن تفتح الطبيعة بعد سباتها الشتوي الطويل وتحفز الأرض للامتلاء والعطاء. ففي لقاء الإلهين الشابين واتحادهما، لقاء للأرض بالقوى المخصبة، وانبعاث عجائبي للحياة النباتية من التربة الميتة.

غير ان زواج الإلهين لا يتم فقط على المستوى الميتافيزيكي غير المنظور، بل انه يجري على المستوى الأرضي في نفس الوقت، من خلال لقاء ملك سومر الذي تحل فيه روح دوموزي بكاهنة إنانا العليا التي تحل فيها روح الإلهة، فيلتقي الاثنان في سرير معد بغرفة في قمة المعبد فيفعلان في عالم الشهادة ما يفعله الإلهان في عالم الغيب، من خلال طقس

معروف بطقس الزواج المقدس، خلدته لنا نصوص وأعمال فنية سومرية كثيرة.

ولكن عمر الربيع قصير، والزرع الأخضر ما يلبث ان يصفر ويستسلم لمناجل الحصادين، ودوموزي يجب أن يموت استعداداً لبعث جديد. هنا تعود الإلهة إنانا إلى صورتها الأصلية كأم كونية كبرى تتحكم في العوالم والبشر والآلهة، وهي الصورة التي رسمتها لنا نصوص عديدة. نقرأ في أحدها:

سيدة النواميس الكونية، أيها النور المشع
واهبة الحياة، صفية الإله «آن» وحبيبة الناس
مليكتي، إن البلاد العاصية لترتعد من صيحتك
يرتفع اليك صراخ البشر
هلعاً من رياح الجنوب العابثة
يعولون أمامك وينتحبون في الطرقات
وفي غمار الوغى، كل شيء تكوم حطاماً عندك
مليكتي، إن الآلهة الكبار
فرت أمام وجهك الغضوب
لم ترفع نظراً إلى جبينك المهوب
ايتها البقرة البرية الجموح
أنت أعظم من كبير الآلهة «آن»
وأعظم من الأم التي ولدتك[٣]

وهكذا نزولاً عند مسؤولياتها في دفع دورة الزراعة، تحكم إنانا بالموت على دوموزي بعد زواجهما القصير المترع بالحب،

وترسل في اثره عفاريت العالم الأسفل لتقتنص روحه، فنراه في النص المعروف بـ «حلم دوموزي» يختبي بين النباتات القصيرة والنباتات الطويلة وكأنه روح القمح التي تفر أمام مناجل الحصادين التي تهوي على سيقان السنابل الميتة. تسأل العفاريت أخت دوموزي عن مكمنه:

من النهر جاؤوها بالماء، فلم تقبل،
من الحقل جاؤوها بالحب فلم تقبل،
صديقي اختبأ بين الزرع لا أدري أين هو
«يفتشون عن دوموزي بين الزرع فلا يجدونه»
اختبأ بين النباتات الصغيرة، لا أدري أين هو
«يفتشون عن دوموزي بين النباتات الصغيرة فلا يجدونه»
اختبأ بين النباتات الكبيرة، لا أدري أين هو
«يفتشون عن دوموزي بين النباتات الكبيرة فلا يجدونه»
(وأخيراً تطاله العفاريت:)
أحدقوا بالسجين، ثم راحوا يدورون حوله
فتلوا حبلاً من أجله، عقدوا سلكاً لأجله
إن مشى أمامهم ضربوه
وإن مشى خلفهم اقتلعوه كالزرع
يداه مصفدتان بالأغلال
ذراعاه مشدودتان بالمسامير[1]

بعد موت دموزي تأخذ إنانا، التي اودت به إلى التهلكة، في التفجع والبكاء عليه

لقد قضى زوجي، زوجي الحلو
لقد قضى ابني، ابني الحلو
قضى زوجي بين نباتات البواكر
قضى زوجي بين نباتات الأواخر
زوجي الذي مضى يبحث عن الزرع، أُسلم إلى الزرع
زوجي الذي مضى يبحث عن الماء، أسلم إلى الماء[٩]

يظهر بوضوح من هذه البكائية، المطابقة الخفية بين دوموزي والحياة النباتية. فهو يموت مع النباتات التي تجنى باكراً، كما يموت مع النباتات التي تجنى متأخرة. وهو يمضي إلى الحقل المزروع فيصير زرعاً، ويسلم إلى الماء الذي يروي لحده بعد موته تهيئة لبعثه. ومن خلال المناحات التي كانت تقام في مختلف المدائن السومرية في مناسبات مخصوصة تؤدى فيها طقوس ومراسم الحزن، كانت الابتهالات ترفع أيضاً من أجل عودته إلى البشر جالباً معه خيرات الأرض. نقرأ في احدى هذه القصائد الابتهالية الجميلة:

عد إلينا أيها الفتى، عد يافتى
أي «أوشوشو» عد إلينا أيها الفتى، عد يافتى
«ننجيزيدا» عد إلينا أيها الفتى، عد يافتى
أي «دامو» عد إلينا أيها الفتى، عد يافتى

أي «عشتارنان» عد إلينا أيها الفتى، عد يافتى
عد إلينا أيها الفتى بطعام الحياة، عد يافتى
عد إلينا أيها الفتى بماء الحياة، عد يافتى(٦)

هذه الطقوس والمناحات كانت تساعد الإله الأسير المصفد بالأغلال في العالم الأسفل على كسر قيوده والانبعاث مجدداً إلى العالم الأعلى. فعندما يولي الشتاء يستفيق الإله من سباته السحري ويطلق صوته عالياً يخور كثور بري، فيغير مسار الطبيعة، ويرفع عن الأرض اللعنات التي حلت عليها بموته. وإذا كنا لا نستطيع أن نتتبع في الأسطورة السومرية أثراً لدور حاسم تقوم به إنانا في بعث دوموزي، فاننا نستطيع أن نرى دورها واضحاً في الأسطورة البابلية اللاحقة من خلال نص هبوط عشتار إلى العالم الأسفل، حيث نجد عشتار تصعد مع تموز في نهاية مغامرتها المهولة في عالم الأموات.

عندما ننتقل من بلاد الرافدين إلى سورية، يغدو مسيرنا على أرض أقل صلابة في استكشافنا لملامح معتقد وأساطير الخصب، وذلك بسبب ندرة النصوص الأسطورية والطقسية. فقبل حل رموز الكتابة الأوغاريتية حوالي عام ١٩٣٠، لم نكن نملك نصاً اسطورياً واحداً من حضارة الساحل الكنعاني، ومدينة ماري على الفرات لم تقدم لنا نصوصاً اسطورية البتة، أما النصوص الأسطورية المكتشفة في أرشيف إيبلا فقصيرة إضافة إلى ندرتها بالنسبة لبقية النصوص. من هنا يجد الباحث نفسه مضطراً إلى الاعتماد على المصادر غير المباشرة، وعلى اليسير

من النصوص التي تتضمن اشارات غير وافية إلى الدين والطقس والأسطورة، سواء في سورية الساحلية أم سورية الداخلية.

تمدنا المصادر اليونانية بروايات متفرقة عن معتقد الخصب الكنعاني في فينيقيا التي بدأ احتكاكهم بها منذ القرن الثامن قبل الميلاد، وأخذوا إلى مواطنهم إلهتها الرئيسية «عستارت» تحت اسم افروديت في وقت مبكر من القرن السابع قبل الميلاد، ومعها رفيقها الذي أسموه «أدونيس» تحريفاً للقب «آدون» أي السيد أو الرب الذي عرف به في فينيقيا. غير أن اسطورتهما الفينيقية قد تعرضت للكثير من التحريف إلى درجة يصعب معها تلمس ملامحها الأصلية. فأم أدونيس التي حملت به سفاحاً من أبيها قد حولت نفسهاإلى شجرة المر التي ولد الإله من جذعها. احبته الالهة افروديت طفلاً فأخذته اليها، وفيما هي تستعد لغياب طويل، وضعت أدونيس في صندوق احكمت اغلاقه وأودعته أمانة عند بيرسفوني إلهة العالم الأسفل طالبة منها ألا تفتح الصندوق لتعرف ما فيه. ولكن بيرسفوني فتحت الصندوق وبهرت لجمال الطفل فقررت الاحتفاظ به لنفسها. وعندما عادت افروديت تطلب وديعتها تمنعت بيرسفوني ونشأ بين الالهتين نزاع حله كبير الآلهة زيوس بأن قضى أن يمكث أدونيس نصف السنة في العالم الأسفل مع بيرسفوني ونصفها الآخر مع افروديت في العالم الأعلى. وهكذا تردد هذه الأسطورة في صيغتها الهيلينية العنصر الرئيسي في أسطورة إنانا ودموزي السومرية، وهو موت وانبعاث روح النبات في دورة دائبة.

لا نستطيع اعتماداً على النصوص الفينيقية القليلة التي بين أيدبنا، ان نلقي مزيداً من الضوء على الرواية الاغريقية لأسطورة الخصب الكنعانية في فينيقيا، ولكننا نعلم عن الاسماء الحقيقية لبطليها. فافروديت في مدينة جبيل (بيبلوس) هي «بعلة» التي يرد اسمها في النقوش مضافاً إلى اسم المدينة أي «بعلة جبيل» بمعنى «سيدة جبيل». ويبدو إلى جانبها الإله «بعل شَميم» أي سيد السموات، الذي يتكرر ظهور اسمه منذ الأزمنة المبكرة لتكون الحضارة الفينيقية مع مطلع الألف الأول قبل الميلاد إلى الفترة الفارسية. كما تشير بعض النصوص اليه باسم «بعل آدر» أي بعل القادر، الذي يعود إلى الظهور في النقوش البونية (الفينيقية الافريقية الشمالية). أما في مدينة صيدون فنجد نفس الإلهة تحت اسم «عستارت»، ومعها الإله «بعل» في عدد من النقوش. وهما اللذان يتكرر اسمهما في التوراة كبعل وعشتوريت، حيث كان بنو إسرائيل يتوجهون إليهما بالعبادة من دون يهوه. كما ورد اسم «بعل» في القرآن الكريم في معرض التنديد ببني إسرائيل: «أتدعون بعلاً وتذرون أحسن الخالقين- الصافات ١٢٥». وفي مدينة صور يظهر «بعل» تحت اسم «ملقارت» أي ملك المدينة (ملك قرت). وتتحدث المصادر الاغريقية عنه كابن للالهة استيريا (عستارت)، وتذكر شيئاً عن موته وبعثه. وفيما عدا ذلك لا تمدنا بقية المدن الفينيقية بمعلومات اضافية عن هذا الأمر.

وقد اختلف الباحثون بخصوص الاسم «بعل»، فقد رأى

البعض أن كلمة «بعل» ليست سوى لقباً للإله السوري «حدد» حل محل الاسم، بينما رأى البعض الآخر أن كلمة «بعل» هي الاسم عينه وأن علاقته مع «حدد» هي علاقة توازي. والحق، إن لكل من الفريقين ما يؤيده ويدعم وجهة نظره. فبينما نجد في نقوش فينيقيا ما يدعم وجهة النظر الأولى، فاننا نجد في أسطورة أوغاريت ما يدعم وجهة النظر الثانية حيث تظهر النصوص بوضوح أن كلمة «بعل» هي الاسم المحدد لإله المدينة.

من اوغاريت جائتنا أكمل النصوص الأسطورية والأدبية السورية، وقد نالت أسطورة الخصب حيزاً كبيراً في هذه النصوص. غير أن شخصيات الأسطورة ومراميها تظهر اختلافاً بيناً عن مثيلاتها في فينيقيا وبلاد الرافدين. فالإله «بعل» هنا يخطو خطوات واسعة في الاستقلال عن «الأم الكبرى» الشرقية التي عرفناها في «إنانا» و«عشتار» و«عستارت» و«بعلة»، ويأخذ في بناء شخصيته ذات الطابع المسيطر القوى. فبعل الأوغاريتي قد ترك شخصيته القديمة كروح للانبات وأسير للدورة الزراعية، وارتفع فوق مظاهر الطبيعة مقلداً آلهة السماء الصاعدة، دون أن يقطع تماماً حبل السرة الذي يربطه بحركة الطبيعة ودورة الزراعة. فهو سيد لعوامل الخصب الفاعلة في الطبيعة عن بُعدٍ وقصد. انه راكب السحاب الذي يرسل المطر من عالي السماء، وسيد البرق والصاعقة، صوته الرعد المجلجل وسلاحه العاصفة والطوفان. يروض المياه البدئية الأولى كالإله البابلي مردوخ، ويقتل التنين ذي الرؤوس السبعة ويصارع الوحوش الخرافية المهولة. وفي

علاقته بالأم الكبرى، يلعب بعل الأوغاريتي دور الشريك الـ
المكافيء لا دور التابع الخاضع، وترجح في شخصيته خصائص
الذكورة في مقابل خصائص الأنوثة التي ميزت تموز وأدونيس. إلا
أن العنصر الأساسي في أسطورة الخصب يبقى قائماً هنا وهو
استسلام الإله للموت وهبوطه إلى العالم الأسفل ردحاً، ثم
صعوده منه بمعونة الأم الكبرى. إلا أن دورة حياة الإله بعل ليست
دورة سنوية، بل دورة تتبع نظاماً خاصاً يعيش بموجبه سبع سنوات
ثم يموت ليبعث من جديد إلى سبع سنوات أخرى.

في الألواح التي اصطلح على تسميتها بألواح بعل وعناة،
نجد الإله بعل وقد بدأ بتوطيد مملكته وبسط سلطانه، على طريقة
الآلهة البطريركية التي تثبت جدراتها في مستهل حياتها بالتغلب
على قوى إلهية كونية تنتمي لعالم الديانة الأمومية الأسبق منها.
فكانت أولى معاركه مع المياه الفوضوية الأولى ممثلة بالإله «يم»
الذي صرعه بعل دون صعوبة تذكر، وبعده انتصر على التنين
«لوتان» ذي الرؤوس السبعة، ثم جنح إلى الراحة فبنى بيتاً بمعونة
حبيبته الإله «عناة» وسكن فيه. غير أن الوضع الجديد لبعل لا
يدوم طويلاً، لأن إله العالم الأسفل «موت» ينبري اليه، ويتقدم
إلى مجمع الآلهة طالباً تسليم بعل. وهنا لا يبدأ بعل استعداداته
للمعركة كما فعل قبل معركته مع «يم» بل نراه ينزل من عليائه
مختاراً دونما عراك، ومعه غيومه وأمطاره وعواصفه وبقية رموز
سلطته، ويستسلم طائعاً لإله الموت، فتجف لغيابه أشجار
الزيتون ومنتجات الأرض وثمارها. بعد هبوط الإله، تهيم زوجته

على وجهها نادبة الحبيب الغائب، ثم تمضي إلى الإله موت طالبة منه إعادة بعل اليها فيردها خائبة متفاخراً أمامها بما فعل. ولكن عناة لا تيأس وتعود اليه مراراً وتكراراً بالطلب نفسه لتلقى منه الموقف المتعنت إياه، فتقرر مجابهته واسترداد بعل بالقوة وتدخل معه في معركة فاصلة تنتهي بانتصارها، اذ تمسك بالإله موت بالسيف تقطعه وبالمذراة تذروه وبالنار تشويه وبالطاحونة تطحنه وفي الحقل تدفنه. فيصعد بعل من العالم الأسفل ويقتص بيديه من القوى الموالية للإله موت. ومع بعل تعود الحياة إلى شتى مظاهر الطبيعة. فيورق الشجر وينضج الثمر وتنتعش سيقان القمح. غير ان الإله موت يستجمع نفسه بعد سبع سنين وينبرى مجدداً للإله بعل، وتعود القوتان الكونيتان إلى الصراع وتتكرر دورة حياة بعل.

هذا الإله الكنعاني الميت الحي في دورة أزلية، الذي يموت من أجل تجديد نفسه وترميم قواه حيث يزيل الموت ما بلي ويعطي البعث كل جديد، هو الذي استمر في التراث الشعبي إلى يومنا هذا من خلال شخصيات الخضر ومارجورجيوس ومار الياس. فالخيال الشعبي يعطي دوماً للرموز القديمة شحنة عاطفية تجعلها مستمرة وحية عبر كل الظروف والشروط المتبدلة. فبينما تحاول السلطة الكهنوتية الرسمية تحويل التاريخ الروحي للبشرية إلى قطع منفصلة ينسخ بعضها بعضاً، يقوم الخيال الشعبي بدور خيط المسبحة الذي يجمع الثقافة الانسانية بعضها إلى بعض في تتابع وتداخل ملون بديع. وفي هذا البحث القصير والمكثف

يقوم الدكتور حسني حداد بدراسة هذه الشخصيات الثلاثة والبحث عن جذورها الضاربة في ديانات الخصب القديمة بطريقة علمية فذة وخيال أدبي رفيع.

فراس السواح

1- Diane wolkstein and S. N. Kramer, Inana, Harper Newyork 1983 p 41.

2- Ibid pp 35 p - 37.

3- James pritchard, Ancient Aear Eastern texts princeton 1969 pp 579 - 582.

4- S. N. Kramer, the sacred marriage Rite, Indiana Univesity 1969, p 125.

انظر أيضاً ترجمة الاستاذ نهاد خياطة للنص في:

س. ن. كريمر، طقوس الجنس المقدس عند السومريين، دار الغربال، دمشق، ١٩٨٦.

5- Ibid p 128.

6- Thorkild Jacopsen, the Treasurs of Darkness, Yale Unversity 1976, p 72.

مقدمة ـ المؤلف

إن رصد الواقع الديني في الشرق ليذهل المرء جراء التنوع الهائل للانتماءات الدينية والطائفية إضافة إلى غزارة التسميات الدينية. وأكثر من أي مكان آخر في العالم الغربي نجد أن الطيف الديني في الشرق الأدنى يغمر الديانات الثلاث، اليهودية والمسيحية والاسلام بمجموعة ضخمة من الطوائف والمذاهب والطقوس السرية.

من جهة أخرى، مع اعتبار هذا التنوع، فاننا نحسُّ وجود مسارٍ خفيٍّ للتدين بين سكان أرياف هذه المنطقة لا يتفق وهذه

التقسيمات الظاهرة. فالفلاحون من جميع الملل الدينية يؤمون الأماكن المقدسة نفسها يتعبدون ويقدمون الهبات، كما يشتركون في معتقدات وأساطير شعبية تتعلق بقوى الطبيعة، والمحظورات، والعبادات، والنذور. ودراسة التفاعل بين الأديان الشعبية والأديان الرسمية يساعد على تسليط الضوء على تاريخ الحركات الدينية في هذه البقعة، وأيضاً على فهم التيارات السوسيولوجية التي تجري خلالها. وتقدم هذه الدراسة نموذجاً لفكرة دينية تتخطى الحواجز الرسمية للعقائد الدينية الرسمية، وهي فكرة لا تزال قائمة في الديانات الثلاث وفروعها وبدعها منذ عصور الوثنية، أي عصور ما قبل المسيحية. وسنحاول أن نبيِّن أن بقاء هذه الفكرة السرانية* القديمة انما هو تكيُّف مع «النظام الاقتصادي الديني» والمحيط التأملي للفلاحين. وهذا بالضرورة يجعلها تجربة مشتركة بين فلاحي كافة الفرق الدينية. وليس نادراً أن نجد مشاركة من أهل المدن السورية في هذه التجربة، ولكن بزخم ثقافي وتبجيل لنفس المذهب، ذلك أن الصبغة الريفية ما زالت تنفذ إلى كافة المستويات لدى سكان هذه المنطقة.

وتتعلق هذه الفكرة الدينية غالباً بموضوع الخصب وآلهته، والقديسين والأنبياء الباقين في المخيلة الشعبية والفعالين في المعتقدات الدينية عند العامة حتى يومنا هذا كالقديسين

---

* سراني وسرانية هي الترجمة التي اخترناها لكلمة Mystical التي تعني الخبرات الروحية والدينية الباطنية. وفي غير سياق هذه الدراسة نفضل عموماً ترجمتها إلى صوفي وصوفية أو باطني وباطنية تبعاً للسياق الذي ترد فيه. ـ المراجع ـ

«جاورجيوس وإلياس والخضر». ففي الشرق نرى تطابقاً بين هؤلاء القديسين، أو على الأقل، تطابقاً في أغلب صفاتهم. فالقديس جاورجيوس ينطبق على «الخضر» عند المسلمين، والخضر بدوره ينطبق على القديس «إلياس» الحي أبداً والذي هو «ايليا» في «التوراة». ورغم التركيبة المتنوعة للأديان والطوائف إلا أن ثمة فكرة دينية عامة تتمركز حول اولئك القديسين الثلاثة. وخلف تعقيدات الانتماءات الدينية عند فلاحي الساحل السوري خصوصاً والشرق الأدنى عموماً، يمكننا تحري نظام ديني آخر يبقى غامضاً إذ يتكون في المقام الأول من عرف شفوي هلامي. على أية حال فمن الممكن الاشارة إلى وجود وحدة، تحت ستار مزركش بأسماء وقصص وممارسات مختلفة، ترتبط باولئك القديسين. واقترح هنا اطلاق تسمية جورجي «georgic» (أي زراعي) على هذا النظام الديني للفلاحين، لتوضيح أن مذهب القديس جاورجيوس يمثل هذا الموقف الديني الزراعي، وان مصطلح «زراعي» أكثر قبولاً من مصطلح «فلاحي»، لما يتضمنه هذا الأخير من نظرة سلبية، ومن مصطلح «ريفي» الذي يمكن أن ينحصر في حيز جغرافي وديموغرافي ضيق. يؤكد مصطلح «زراعي» الوضع البيئي مشيراً إلى شغل الأرض والاعتماد على نتاج الطبيعة. ولا يقتصر هذا المصطلح تحديداً على الفلاحين القرويين بل يمتد ليشمل طبقة الفلاحين القبليين (العشائر)، وعدداً كبيراً من سكان المدن الذين لا تزال جذورهم ممتدة عميقاً في الريف. انه يضم جميع اولئك الذين لا يزال شغلهم الشاغل

موجهاً لانتاج الغذاء وتأمين سبل العيش عن طريق التضافر المباشر مع الطبيعة المعطاء والأرض والمطر والريح .

وسنحاول في هذا الفصل توضيح الكيفية التي نفذت بها آلهة الخصب القديمة بشكل رسمي إلى الديانات اليهودية والمسيحية والاسلام وفروعها. فدرجة وظروف ونتائج قبول مثل هذه المذاهب الشعبية داخل الهيكل الرسمي لهذه الأديان يمكن أن تلقي مزيداً من الضوء على الاختلافات الجوهرية فيما بينها، أو بمعنى آخر، على الاختلافات بين القديسين «الزراعيين» ايليا والخضر وجاورجيوس، التي هي عبارة عن مؤشرات لبعض الاختلافات الأساسية بين الأديان الرسمية المعلنة تلك. من جهة ثانية فان أوجه التشابه بين هذه المذاهب الشعبية هي أيضاً دلالة على الوحدة الأساسية للسلوكية الريفية ونصف المدينية في الشرق الأدنى، التي تتجاوز التقسيمات والتناقضات القائمة في الأنظمة الدينية الرسمية .

ينحصر الحديث هنا على الشرق الأدنى، وتحديداً الشريط الساحلي السوري بين الأناضول ومصر. بيد أنه من اليسير ادراك أن بعض سمات هؤلاء القديسين ونحلهم تطبق في مناطق مصرية وأسيوية وراء الشرق الأدنى. وبمقابلة الأديان الرسمية بالديانات «الزراعية» نشير إلى التقاليد الشفوية غير المنظمة مقابل الأديان المنظمة والمدونة. وسنتناول لاحقاً طبيعة «الديانة الزراعية». كما نشير أيضاً إلى أن رد فعل الديانات «الرسمية» تجاه المذاهب الشعبية للقديسين الزراعيين، يظهر

مقدار حجم الاختلاف بين المسيحية من جهة، ومن جهة أخرى اليهودية والاسلام. فالمسيحية تكشف عن ميل أقوى لتشرب واستيعاب المذاهب القديمة، من الديانتين الأخريين.

اليهودية، كما هو معلوم من قصص التوراة، كانت تقاتل الآلهة الزراعيين بضراوة شديدة، غير أنها كثيراً جداً ما كانت تفشل. وتظهر اليهودية درجة عالية من تبني وتشرب واستعارة بعض المذاهب والطقوس الكنعانية. وأيّاً ما كانت الاستعارة فانها تُسمّى وتُشكَّل وتُفسَّر بقالب جديد يتفق والعقائد اليهودية الأساسية والتاريخ اليهودي. وهنا تبرز واحدة من الشخصيات الدينية العظيمة في الكتاب المقدس لأنها أولاً مبجّلة ومكرّمة جداً، ومن ثم لأنها، وللوهلة الأولى، أعصى الشخصيات التوراتية على التفسير بمفاهيم قدسية يهودية. نشير بهذا إلى «ايليا» أهم شخصية «زراعية» لدينا في الناموس العبري. فهو يمثل، كما سنشير في هذا الفصل، نموذجاً للألوهية الريفية الزراعية لقوى الطبيعة ضمن بنية ديانة تاريخية. فوصف مكانة ايليا في المعتقد العبري ينطبق في معظم الأحوال على فترة احتلال واستيطان القبائل الاسرائيلية لأرض كنعان. ولأن ايليا قديس خصب فانه يمر عبر تحولات في شخصية ترتقي به إلى مكانته تلك بين اليهود المتأوربين من سكان الحواضر، وهو الآن حافظ الناموس، وفي المستقبل طليعة عودة «المسيّا»*. فالانبات

---

* نفضل ابقاء كلمة «مسيّا» في لفظها الاصلي عند الاشارة إلى المسيح في المعتقد اليهودي. ـ المراجع ـ

وخاصية صنع المطر لديه تفسحان له الطريق، من قريب أو بعيد، لأداء وظيفة سياسية تعكس التحول الجوهري للديانة اليهودية على مر العصور.

الاسلام في مراحله الأولى ركّز على الفتوحات وأعمال الامبراطورية. وقد بقي التيار الأساسي للفلاحين، ولمدة طويلة بعد الفتح العربي، بعيداً عن الاهتداء إلى دين التوحيد والتسامي* إلى أن استطاع اولئك الفلاحون نقل مذاهبهم الخاصة معهم، أو أشكالاً معدلة عنها. علاوة على ذلك فقد كان هنالك عدد من التركيبات الطائفية تشكلت ضمن هيكل الاسلام أو على محيطه خلال المراحل الأولى لانتشار الدولة الاسلامية. فهذه الطوائف، إضافة إلى الحركة الصوفية والطرق المتنوعة، يسرت منفذاً لامتصاص العناصر الزراعية، أو على الأقل، قبولها كبدع تهدف إلى الخير العام ضمن بنية الاسلام الرسمي. ولقد اخترعت بعض هذه الطوائف أولياءها وشهداءها وأئمتها ورفعتهم فوق مستوى البشر وصاروا إلى شخصيات رئيسة في تلك الطوائف مجسدين الكثير من طقوس الخصب.

أما اسلام السنة فقد ظل على صلابته في رفض الطوائف الزراعية، ومن الممكن أن يكون هذا أحد الاسباب التي تجعل الجبال السورية من طوروس إلى الجليل جملة خارج دائرة مجال

---

* التسامي Transcendental بالمعنى الديني، هو الايمان بإله مفارق للطبيعة خالق لها يتحكم بها عن بعد. وذلك على عكس ديانات الخصب التي كانت تؤمن بإله هو جزء من حركة الطبيعة. ـ المراجع ـ

أنسنة رغم أن هذه المنطقة كانت تقع باستمرار تحت سيادة حكام مسلمين سنيين لما يزيد عن / ١٣٠٠ / سنة ـ خلا فترة قصيرة. وهي لا تزال موئلاً للمسيحيين والشيعة والدروز. ولدى كل هذه الطوائف أسس زراعية قوية جداً.

في رفضها لمبدأ تأليه البشر وأنسنة الآلهة فان كلًّا من اليهودية والاسلام وضع نفسه في موقع معارضة مباشر للعناصر الزراعية عند سكان الشرق. وبعد صراع طال أمده ضد «الآلهة الأغراب» فان يهودية الشتات المقتصرة تقريباً على أهل المدن قد أصبحت منيعة ضد التأثيرات الزراعية.

أما المسيحية التي انتشرت كثيراً بين الفلاحين فقد كانت بداية نشأتها عرضة لتبني هذه العناصر الزراعية. وفي الحقيقة كانت رموز المسيحية الأولى قد استعيرت من العناصر الزراعية للأرض. فالراعي وصياد السمك ينطبقان على يسوع وحوارييه، أضف إلى ذلك أن الاعتقاد بموت وانبعاث المسيح لا يمكن فصله عن طقوس وأساطير الخصب لمرحلة ما قبل المسيحية، على الأقل في طبيعة ذلك الاعتقاد الرمزية. ويمكن بسهولة استجرار ومزج عبادة مريم مع عبادة «بعلة» السورية و «ايزيس» المصرية. وحيثما يُهجر مذهبي مريم ويسوع الجديدين يقوم عدد كبير من القديسين والشهداء بتأمين استمرارية الديانة الزراعية. وكان معظم اولئك القديسين إما تاريخيين أو ذوي تاريخ مزيف. ويظل جاورجيوس هو القديس الأكثر شعبية بين الفلاحين والذي، رغم جهود بعض آباء الكنيسة ومؤرخيها، يبقى دون رباط

وثيق بشخص تاريخي. فأصوله كما سنرى تفرض علينا العودة بها إلى طوائف الخصب للآلهة السوريين لعصور ما قبل المسيحية.

كانت السمات والخصائص الزراعية التي تبنتها المسيحية عندما كانت مذهباً ناشئاً، لا تزال تطفو على السطح بعدما تحولت المسيحية إلى كنيسة مستقرة. فرغم الطبقات الكثيفة التي رصفتها المسيحية والمعتقد الأخروي، وطقوس دورة الحياة في الطبيعة، وقدسية الأشياء والاماكن، وفكرة الفعل الإلهي في الظاهرة الطبيعية، وفهم المقدس من خلال التجسد، واسباغ القدسية والتسامي على الدنيوي، بقيت تلك التوجهات عنصرا هاماً في مسيحية العامة، خصوصاً في الشرق الأدنى. فعند العامة، أفسحت الدوغمائية الكنسية المجال أمام الممارسات القديمة للتأثير في المقدس، وتحول التجلي الوحيد للمسيح في التاريخ، إلى تجلٍ دوري وفعل متكرر ذي طابع منفعي، وامتزجت ولادة القوى الكونية بتأثير وفعالية القوى الاخصابية.

وتلتقي الديانات الثلاث عند نقطة هامة واحدة، وهي ان الله فعال في التاريخ، وعليه فان التاريخ كله مقدس. يترتب على ذلك ان جميع آلهة الوثنيين اسطورية، أي غير تاريخية وبالتالي لا وجود لها. أما الأشخاص المقدسون في التقاليد الدينية فهم بالضرورة أشخاص تاريخيون، ولذا كان لابد من صنع تاريخ لأولئك القديسين الذين تسربوا إلى المسيحية من الفترات الوثنية السابقة، قبل قبولهم من قبل الأديان التاريخية. والشيء نفسه ينطبق على المناسبات والاحتفالات والأيام المقدسة الوثنية التي

أعطيت تفسيراً تاريخياً. فالعيد الوثني الذي يحتفل فيه بتجدد قوى الطبيعة تأرخ على أنه عيد الفصح اليهودي، ذكرى الحدث «التاريخي» لخروج اليهود من مصر. ويقابله في المسيحية عيد الفصح المسيحي الذي يحتفل فيه بقيامة يسوع «التاريخية». ويبدو أن يسوع الناصري كان «المسيّا المتأرخ» والانسان ـ الإله. وكذلك مريم البتول كانت الأم الكبرى «المتأرخة». من الواضح أن كثيراً من وظائف الآلهة السورية ـ البابلية القديمة اقتبستها شخصيات تاريخية وأخرى مزيفة تاريخياً مقبولة لدى الكنائس المسيحية.

إن أحد أهم سمات الديانة الزراعية، بالمقارنة مع الديانات الرسمية في الشرق، هي السمة اللاتاريخية. فبينما تستند اليهودية والاسلام ـ وبأشكال مختلفة المسيحية ـ إلى الايمان بالمقدس الثابت، نجد أن مذاهب الفلاحين تميل إلى التأكيد على الدوري المتكرر. فالتاريخ بمسيرته الطويلة ما هو إلا مفهوم غامض عند أهل الريف، وهم يعنون أولاً وقبل كل شيء بالتاريخ القريب مقاساً بمدى حياة المرء وبالذكريات التي يكاد أن يطويها النسيان لأجيال قليلة خلت.

واقعة المسيح، رغم اعتبارها واقعة تاريخية إلا أن العقلية الزراعية تقبلها لسببين اثنين: اولهما أن الفلاح يعنى بالاحتفال الدوري بالحدث ذاته دون أن يحفل بكونه حدثاً ثابتاً في التاريخ، ولذا فهو يتجاوز التاريخ. فما من أحد يشاهد الاحتفال بذكرى الجمعة الحزينة في احدى قرى الشرق إلا ويمكنه رؤية

المحتفلين وهم يتصرفون كما لو أنهم في مأتم حقيقي. وبعكس اللاهوتي، نجد اهتمام الفلاح منصب كلية على المعنى العاطفي للحدث في ذلك العام كما في كل عام. أما اللاهوتيون فيتفكرون في أهمية الحدث من موقعه التاريخي والعالمي. أما السبب الثاني فهو أن الايمان بكون يسوع المسيح حياً خالداً في شكله الانساني الذي كان به على الأرض قد أضعف، ان لم نقل تعارض مع، أهمية واقعة المسيح كذروة في خط سير التاريخ. وهذا ما جعل الشخصية المحورية في الديانة المسيحية منسجمة مع المزاج الديني الزراعي.

كانت الآلهة التي تموت وتبعث ذات شعبية كبيرة في الامبراطورية الرومانية. وقد جاءت المسيحية بمثابة فرقة أخرى تمحور اعتقادها في إله يموت ويبعث متجسداً في يسوع الناصري الذي نافس آلهة أخرى مثل «ميثرا» و «أدونيس» و «أتيس» و «أوزيريس». مع ذلك فالمسيح وميثرا يختلفان عن الثلاثة الآخرين في أنهما قد «تأرخا»، أي أن موتهما وبعثهما ثم رفعهما إلى السماء أصبح حدثاً تاريخياً، فهو حدث مرة واحدة فأدى إلى خلاص دائم ذي طابع فريد في نوعه. أما أدونيس وأتيس وأوزيريس فلهم نصيب أكبر من طبيعة الآلهة الزراعية، وأفعالهم في الخلاص دورية تتماشى ودورة الخصب في الطبيعة. رغم هذا كان على الكنيسة، ولأسباب سياسية، إرضاء مطالب ورغبات الوثنيين، أي الفلاحين. وهنا تبدأ التنازلات، مثل تعيين مولد المسيح في يوم يمثل انتصار إله الشمس،

والسماح للفلاحين بتفسير موت المسيح على أنه عيد ربيعي.
لكن، وبسبب تشجيع الكنيسة لمذاهب القدسين، ظل جاورجيوس، الذي يمثل دورية الخلاص في الطبيعة، قوة باطنية ضمن الايمان المسيحي[1].

كانت سرمدية الحياة السمة التي جعلت «ايليا» شخصية غير عادية في الديانة اليهودية. وبشكل يغاير تقريباً جميع الأشياء المعروفة في الكتاب المقدس، فان ايليا يفتقر إلى أساس تاريخي متين. فمآثره كانت أساطير قوامها معجزات وأعمال خارقة، وفي النهاية، حياة أبدية. ويقف ايليا متحدياً محدودية ماضي الزمان السحيق، ومحصناً ضد التأثير الطبيعي للمستقبل. فبهذا يكون الأكثر شبهاً بالمسيح من بين جميع الشخصيات في الكتاب. وقد كان يعتقد أن يسوع هو ايليا نفسه (متى ١٦ : ١٤، مرقس ٨ : ٢٨ . . . الخ). وجعلت السمة الزراعية والاسطورية من ايليا قديساً مسيحياً ذا مجد عظيم ما كان لأحد آخر في «العهد القديم»*.

---

* ايليا (الياس باليونانية والعربية) نبي عاش في مملكة اسرائيل الشمالية ابان حكم الملك آخاب وزوجته ايزابيل الكنعانية بنت ملك صيدون. تنبأ أن الرب سيمنع المطر عن الأرض بسبب تحول آخاب إلى ديانة كنعان، واعتزل طيلة مدة الجفاف حيث كانت الغربان تأتي اليه بالطعام، ثم أقام في بيت ارملة لم يفرغ بيتها من الطعام طوال مكثه لديها. وعندما مات ابنها اعاده ايليا إلى الحياة بصلواته. وفي السنة الثالثة من الجفاف دخل في مواجهة مع انبياء بعل وعشيره أمام محرقة، حيث فشلت صلواتهم لبعل واستجاب الرب اليه بنار نزلت من السماء والتهمت المحرقة، فقام اتباعه على الاثر بقتل جميع انبياء بعل، ونزل المطر بعدها وجرى أمام مركبة الملك. وبعد حياة ←

الاسلام فقير في مجال المعجزات والشخصيات الخارقة التي تروق لمـزاج الفلاحين. فحياة «الخضـر» الاسـطورية، والماضي غير المحدود (الافتقار إلى التاريخية)، وأبدية الحياة تقدم للفلاحين غذاء لا يجدونه في الاسلام الموثّق تاريخياً بشكل دقيق، والذي انبعث من أرض الجزيرة العربية. من جهة ثانية، فان كون الاسلام حصيلة تامة تقريباً عند ابتداء دعوته جعل من غير الممكن له استيعاب الطوائف المرادة بنفس السهولة التي كانت للديانتين الأخريين. وكما سنرى فيما بعد، فان العنصر الزراعي ظل هامشياً في الاسلام الرسمي مع التسامح بوجوده لكن دون قبوله رسمياً. وقد تطورت الفرق الاسلامية المبتدعة وأنشأت اعتقادات تتلائم مع العنصر الزراعي لدى الناس الذين انضووا تحت لواء الدولة الاسلامية. وقد يتأمل المرء في أن هذه العناصر الزراعية التي دخلت الاسلام هي التي سببت، وإن

حافلة بالنبوءات والمعجزات ذهب مع النبي اليشع إلى نهر الاردن حيث ضرب الماء بردائه فانشق وسارا على اليابسة، ثم جاءت مركبة نارية من السماء حملت ايليا نحو الأعالي وترك رداءه لأليشع (راجع اخبار ايليا المتفرقة في سفري الملوك الأول والثاني وسفري أخبار الأيام الأول والثاني). وقد وردت آخر اشارة إلى ايليا في العهد القديم في سفر ملاخي، وفحواها ان الرب سيرسل ايليا قبل يوم الرب العظيم.

هذا في التوراة. أما في الانجيل فقد وعد الملاك ان يوحنا المعمدان سيتقدم المسيح بروح ايليا وقوته (لوقا ١ : ١٧) وفي هذا المعنى قال المسيح ان ايليا قد جاء في شخص يوحنا المعمدان (متى ١١ : ١٤، ١٧) وقد ظن البعض خطأ أن يسوع هو نفسه ايليا (متى ١٦ : ١٤) وقد ظهر ايليا وموسى مع يسوع عند التجلي (لوقا ٩: ٢٨ ـ ١٦). ـ المراجع ـ

جزئياً، البدع. وقد بالغت بعض هذه الاعتقادات، وبوضوح، في ابتعادها عن التعاليم الاسلامية المعتمدة، وخصوصاً تلك المتعلقة بالأولياء وأماكن العبادة والمقدسات، حتى أصبحت سرية ومنفصلة عن التيار الأساسي للمؤمنين معتمدة لذلك على طقوس ادخالية معقدة بغية تجنب غير المرغوب بهم.

ومن الواجب الآن القاء نظرة أكثر تمحيصاً على الثلاثية الزراعية (القديسين جاورجيوس والياس والخضر) كما يظهرون في الميثولوجيا الشعبية ومن ثم كما هم في الأنظمة الدينية الرسمية.

القديسون الزراعيون

على العكس مما حدث لقديسين مسيحيين آخرين إذ رقُّوا إلى درجة أعلى (في بعض الحالات لازاحة الآلهة الوثنية القديمة)، فان القديس جاورجيوس يبدو إلهاً أنزل إلى درجة قديس. وأشعر وأنا أصرح بهذا بالثقة التامة، رغم التأكيدات الكثيرة لمؤرخي الكنيسة وكتاب سير القديسين الذين يصرون على جعله شخصية تاريخية لا لبس فيها. فهو أكثر القديسين السوريي الأصل شعبية بين جموع المسيحيين. وقد ذاع صيته وانتشر مذهبه في جميع أصقاع أوربة. وهذا واضح من خلال

شيوع استخدام اسم (جورج) واطلاقه على كثير من الكنائس والأديرة والأماكن المكرسة للعبادة والتقديس. وفي القرن الثاني عشر جعل الصليبيون منه رمزاً للفروسية والبسالة. وفي بريطانيا أصبح القديس الحامي للمملكة ولعدد من المدن الأوربية أيضاً. أضف إلى ذلك أن مذهبه شائع جداً بين فلاحي البلقان وروسيا، وفي الواقع، في أي مكان يحترف الناس فيه الزراعة وتربية الماشية.

يبقى جاورجيوس فيما يبدو دون أساس تاريخي، بخلاف القسم الأكبر من القديسين المسيحيين الذين كانوا شخصيات تاريخية ومبشرين وشهداء في سبيل العقيدة. ينتج عن هذا الارتياب أن مكانة جاورجيوس كقديس تعرضت لتحدي الكثير من علماء الدين والمؤرخين. وقد باءت بالفشل محاولات ربطه بأشخاص معروفين تاريخياً. فنجد مثلاً جيبون Gibbon *، مع عدائه للقديسين عموماً، يربطه بجاورجيوس الكابادوكي الذي لم يكن جيبون نفسه يكنُّ له احتراماً[٢]. وبتلر Butler في كتابه (حياة القديسين) يدافع عن القديس جاورجيوس ضد التهم الموجهة إليه على أنه شكل من أشكال الألوهية الوثنية، مؤكداً على أنه كان فارساً مسيحياً عاش في فلسطين في القرن الثالث[٣]. ويصر العرف المقبول عامة على أن القديس جاورجيوس كان بطلاً

---

* جيبون مؤرخ انكليزي عاش في القرن الثامن عشر. من أهم اعماله: اضمحلال وسقوط الامبراطورية الرومانية. والكتاب منشور بالعربية في ثلاثة مجلدات صادر عن الهيئة المصرية للكتاب. ـ المراجع ـ

حقيقياً من أبطال الايمان المسيحي: فقد عاش في فلسطين وانقذ ابنة لملك مسيحي من براثن التنين. في هذه القصة ثمة تشابه كبير مع ما ورد في قصة «برسيوس وأندروميدا» اليونانية. بيد أنها تعود في جذورها بعيداً إلى صراع الآلهة السورية - البابلية القديمة مع التنانين رمز العماء والهيولى الأولى (مردوخ يقاتل تعامة)* ورمز الموت والجفاف (بعل - هدد يقاتل موت).

كان لغز القديس جاورجيوس موضع جدل الكثير من العلماء. لقد ارتبط وشاكل كثيراً من الشخصيات الإلهية والانسانية في الميثولوجيا السورية - البابلية والاغريقية والمسيحية. وماثل أيضاً برسيوس في صراعه مع التنين و«جلوكوس»، جني الخصب الأخضر، لما يتضمنه هذا الاسم. كما ماثل «حورس» و«تموز» و«أدونيس». وتكثر الحكايات الأسطورية عن القديس جاورجيوس في مصادر متنوعة، وغالباً حول حوض البحر المتوسط. كما توجد أيضاً، وإن بشكل مختلف، في النصوص اليونانية واللاتينية والسريانية والقبطية والأرمنية والاثيوبية وحتى الهندية[4].

في سوريا كما في الجزء الأكبر من الشرق الأدنى لا يجد

* علماء اللغة الأكادية يهجئون اسم الالهة البابلية الممثلة للهيولي الأولى على الشكل التالي: «تي - ءا - مات». وبما أننا نرجح أن تكون الهمزة هنا بديلاً عن حرف العين المفقود في الكتابة البابلية، فان كتابة الأسم بالعربية «تعامت» هو الأفضل، مع امكانية استبدال التاء الممدودة بتاء مربوطة للدلالة على الانوثة «تعامة». - المراجع -

الفلاحون صعوبة في مطابقة القديس جاورجيوس مع الخضر. ولا تقف المطابقة عند هذا الحد إذ أن الخضر الذي هو القديس جاورجيوس في بعض المناطق، خصوصاً الساحلية الشمالية، هو أيضاً «مار الياس» في مناطق اخرى (الياس هو ايليا). وكنتيجة منطقية فيجب أن يعني هذا أيضاً أن القديس جاورجيوس هو القديس الياس. بيد أن المنطق قلما يكون أداة استقصاء في المجالات الدينية والميثولوجية.

تذكرنا خصائص القديس جاورجيوس (الخصب، عمل البحر، قتال التنين، وجود المزارات على قمم الجبال) ببعل-حدد الذي أصبح معروفاً لنا بعد اكتشاف ألواح أوغاريت، المدينة السورية القديمة في رأس شمرا إلى الشمال من اللاذقية. وسنناقش فيما بعد بتفصيل أكثر موضوع التشابه بين جاورجيوس وبعل-حدد إله الخصب والمحارب ضد العماء والجفاف.

الاسم جاورجيوس (George) يربط مذهبه بقوة مع الأرض والطبيعة. ولعل أفضل ترجمة للاسم الاغريقي هو المفهوم العربي «فلاح». وتجدر الاشارة إلى أننا لم نعرف لهذا الاسم استخداماً قبل العهد المسيحي. وتشير هذه الحقيقة بوضوح إلى أن الاسم «جاورجيوس» استخدم فقط بعد أن أصبح موضوع إجلال، أي بعد أن أطلق اسماً على قديس مسيحي، وبعد القبول العام لمذهبه. كما أنه لم يكن للاسم هذا وجود في المحفوظات الهيلينية قبل المسيحية. ومن الأسلم الافتراض أنه في المجتمع الهلنى المتحضر كانت الكلمة «georgeus» تشير

إلى طبقة أدنى في السلم الاجتماعي، كما هي حال كلمة «فلاح» تماماً لدى أبناء المدن في الشرق الأدنى، وكحال كلمة «وثني ـ Pagan » التي تعني أيضاً «فلاح» أو قروي.

عندئذٍ كيف يمكن لكلمة «Georgeus» أو «Georgos» التي تعبر عن شغل الأرض وعن وضع اجتماعي ـ اقتصادي معين أن تنطبق على واحد من أكثر القديسين شعبية في الدين المسيحي؟ التعليل المعقول هو أنها بدأت كاشارة إلى «لاهوت للفلاحين» أو «لاهوت فلاحي». وليس عسيراً تخيل أن الكلمة، في المراكز المدنية كانطاكية التي تحولت فيما بعد إلى المسيحية، كانت تطلق على بعل الوثني أو نظيره الاغريقي «زفس»* الذي كان معبود الفلاحين في معابد الريف. ويمكن أن يكونا قد سميا زفس جاورجيوس Zeus Georgeus أو بيلوس جاورجيوس Bellus Georgeus. رغم عدم وجود وثائق مكتوبة تؤكد ذلك. من جهة أخرى استخدم مصطلح «زفس جاورجيوس» في ابتهال زفس في أثينا عند تقديم القربان في العشرين من شهر Maimakterion (٥).

وهكذا فمن الميسور افتراض أن بعل أو زفس عند سكان الريف قد تطور إلى قديس مسيحي بعد انتشار المسيحية بين الفلاحين. وبالرغم من شعبية هذا القديس فان ثمة دليل على أن الدوائر الكنسية المسيحية الرسمية قد واجهت صعوبة في ضمه

---

* Zeus ـ زوس ـ زيوس ـ زفس.

إلى طبقة قديسي الكنيسة. فلا الكثير من خصائصه ولا الطقوس التي تؤدى في ذكراه ولا الأساطير التي تنسج حوله استطاعت أن تجعل آباء الكنيسة الشرقية يتشربونها بسهولة أو يعيدون تحديدها بمصطلحات مسيحية. وفي أوائل القرن الخامس أدان البابا جيلاسيوس النشاطات المتعلقة بالقديس جاورجيوس إذ أنها شوهت من قبل الهراطقة المبتدعين، غير أنه أكد على أن القديس نفسه كان شهيداً حقيقياً، ولهذا فهو يستحق التبجيل. وبعد ثلاثة قرون تكررت هذه الادانة في الشرق من قبل البطريرك «نيصافورس»[٦]. ومما لا شك فيه هو أن الممارسات التي أدينت كانت التقاليد الزراعية التي عاشت منذ عصور ما قبل المسيحية. وفي هجومه على طوائف القديسين عموماً استثنى «كالفن» القديس جاورجيوس معتبراً إياه روحاً أو شبحاً[٧]. وفي عام ١٩٦٥ أعلن الفاتيكان الغاء يوم القديس جاورجيوس كعيد محولاً إياه إلى مجرد ذكرى.

التقليد الاعتقادي البعلي القديم الذي لا يزال حياً في القديس جاورجيوس، هو أيضاً موجود في الخضر[٨]. وقد جابه العلماء المسلمون شعبية الخضر لدى الجماهير وحاولوا ايجاد مسند تاريخي لهذا الولي الجليل. ويتفق كل مفسري القرآن تقريباً على أن «العبد الصالح» الذي قابله موسى عند «مجمع البحرين» (سورة الكهف، الآية ٦٨) هو الخضر الذي كان يفوق موسى علماً[٩]. ومن الطبيعي أن يقبل الكثيرون الخضر، إلا أنهم بذلوا محاولة لربطه بأشخاص وأحداث تاريخية. فضلاً عن

علاقته بموسى فان ثمة قصة أخرى تجعل منه زميلاً أو أخاً لالياس. ويقال أن كلا الاثنين، الخضر والياس، قادا الاسكندر العظيم إلى نبع الحياة الخالدة عبر أرض الظلمات. وهنا نجد أن هذا الولي يحتل وظائف «أندرياس» اليوناني(١٠).

تختلف المصادر العربية كثيراً في تفسير وتقصي حياة الولي الكبير. فالثعلبي في كتبه عن الأنبياء يرى أن الخضر يأتي من بلاد فارس، وأن الياس يأتي من إسرائيل ويلتقيان في كل عام في الموسم. وهما لا يزالان حيين وسيبقيان هكذا مادام القرآن. وعندما يرفع القرآن يموتان(١١). وبالرغم من ان الخضر والياس يذكران في بعض هذه الروايات كشخصين مستقلين، إلا أنه من الواضح أن المؤرخين كانوا يحاولون عقلنة الايمان السائد الذي لم يتعود الخوض في مثل هذه المماحكات المنطقية.

لدى المتصوفة المسلمين دعوى خصوصية للصلة الحميمة مع الخضر، فهو موجود لارشادهم والهامهم وتوجيههم. وقد ذكر الصوفي الكبير ابن عربي في كتابه «الفتوحات المكية» لقاءاته الكثيرة مع الخضر. ومن المفيد الاشارة هنا إلى أن القبلانيين* اليهود رديفي الصوفية ينطقون بعبارات مشابهة عن «ايليا».

سكان جبال الشمال السوري يكنُّون للخضر إجلالاً أكثر من أي ولي آخر. وبحسب بعض الروايات فان اسمه بالنسبة لهم

---

* Kabballah: مجموعة كتابات يهودية من العصر الوسيط ذات طابع سراني صوفي.

ـ المراجع ـ

لا يضاهيه اسم، إذ به يتوسلون قبل ابتداء أي عمل تقريباً، واليمين [القسم] باسمه هو أكثر إلزاماً بالوفاء من أي قسم آخر. ومن المحتمل أنهم يؤمنون بأن الخضر اسم إلهي وأن الأنبياء طراً ما هم إلا فيوض من هذا الاسم .

من الميسور ملاحظة تطابق الخضر والياس - ايليا عن طريق المقامات والأضرحة المنسوبة لهذا الاسم أو ذاك في الوقت نفسه. واليهود في فلسطين اعتادوا تسمية ايليا، عند تعريبه، الخضر. وتظهر المطابقة واضحة في الاسم التركي «خزر الياس» (الخضر - الياس). وفي اوائل القرن السادس عشر تحدث Busbeq عن بطل تركي يدعى «كيدرلس» حيث نسب اليه مآثر وخصائص شبيهة بتلك التي للقديس جاورجيوس(١٣). وأشار س. ليد في عام ١٨٦٠ إلى أن سكان الجبال الشمالية في سوريا يقدسون الخضر كثيراً، الذي هو عند المسيحيين مار الياس أو القديس جاورجيوس(١٤).

لم يكن خزر الياس التركي ذا شعبية عند الفلاحين فحسب، بل وفي الدوائر الرسمية العثمانية أيضاً. ففي اليوم الواقع في ٢٣ نيسان كان من المعتاد تنفيذ بعض العمليات المدنية والعسكرية، وفي هذا اليوم أبحر الاسطول الذي طاف بحر إيجه، وفيه كانت تنطلق الخيول إلى المراعي من اصطبلات الامبراطورية. وفي الواقع كان ذلك اليوم مصادفاً بداية الصيف الرسمية(١٥).

كون الصيف يبتدىء في يوم القديس جاورجيوس هو تقليد

موجود تقريباً في الشرق الأدنى طراً. وهذه طبعاً اشارة إلى خصوصية الانبات لهذا القديس. وسوف نتناول هذا الموضوع فيما بعد بتفصيل أكثر. للثالث والعشرين من نيسان أهمية كعلاقة رابطة بين مذهب القديس جاورجيوس والمذاهب الهيلينية القديمة لبعل - زفس. ويذكر (مالالاس) أن «سلوقس نيكاتور»* قرب قرباناً لزفس على جبل كاسيوس في الثالث والعشرين من نيسان[١٦]. وهذا ما جعل ذلك اليوم عيداً هاماً لأحد أشهر الآلهة في الشمال السوري في العصور القديمة. وليس زفس كاسيوس أكثر من بعل صافون أو بعل صابان في النصوص الاوغاريتية التي اكتشفت في رأس شمرا في اللاذقية في ثلاثينات هذا القرن[١٧].

يجعل تاريخ ومكان الاحتفال بآلهة الخصب العلاقة بين بعل أوغاريت (وكل الساحل السوري) القديم والقديسين الزراعيين المحدثين ممكنة بل وراجحة جداً. وقد كان جبل الأقرع في شمالي سوريا على الدوام مقراً للآلهة وموضع تقديس بسبب شكله وطريقة بروزه وموقعه بين البحر غرباً والسهل الخصيب لنهر العاصي شرقاً. وقد أدرك الحثيون القدماء أهميته فدعوه «جبل خازي»[١٨]. وكان في الميثولوجيا الأوغاريتية يدعى «صابان» (صافون في النصوص التوراتية) وهو مكان جلوس إله

---

* وهو احد قواد الاسكندر وورثه على سورية. بنى اربع مدن هي انطاكية وسلوقية وافاميا واللاذقية. وتقول الروايات أن موقع مدينة انطاكية قد حددته الارادة الإلهية. فبعد أن قدم سلوقس قربانه على الجبل انقض عليه نسر وخطفه طائراً به (النسر كان رمزاً للإله زيوس أو زفس) وحط به عند موقع انطاكية. - المراجع -

العاصفة السوري العظيم بعل ـ هدد. وفي العصور الهيلينية والرومانية كان يسمى جبل كاسيوس مجلس زفس ـ بعل العظيم.

يعتبر تاريخ الاحتفال دليلاً أكثر قوة على تلك العلاقة. فالثالث والعشرون من نيسان مهم من الناحية المناخية إذ أنه اليوم الذي تكون المحاصيل فيه قد أصبحت في مأمن من امكانية الصقيع. وبهذا فانه ذو روابط زراعية (فلاحية). كما أن له دلالة أرصادية لكن دون قيمة قياسية فلكية ظاهرة. ولا يزال بامكاننا أن نستشف التأثير الكبير للتفسيرات الدينية البابلية والمصرية والهيلينية على التقويم الديني لعالمنا المعاصر. ويبقى عيد القديس جاورجيوس عند الفلاحين ذو دلالة كبيرة نظراً لنشاطاته الزراعية وارتباطاته. وكذا هي حال العشرين من تموز الذي عينته الكنيسة للقديس الياس. وكذلك الخامس عشر من آب المكرس لذكرى صعود مريم العذراء إلى السماء. وتعتبر كل هذه التواريخ مراحل هامة للنشاطات الزراعية. أما ربطها بالدورة الفلكية، وحتى التنجيمية فهو ربط عرضي ولا علاقة له، بالفلاحين. وكانت الكنيسة المسيحية في بواكير عهدها قد تبنت التواريخ الزراعية من أجل التقويم المسيحي المقدس(١٩).

يشترك القديسون الزراعيون بخصائص معينة تشير إلى امكانية تتبع أصل واحد للمذاهب البعلية في المجتمع الزراعي للشرق الأدنى. ونجد أن معظم الفروق بين هؤلاء القديسين، كما سنوضح فيما بعد، ليست أكثر من قوالب متنوعة لموضوع واحد. على أية حال فمعظم هذه القوالب المتنوعة تعكس تأثير

الاختلافات الدينية عند الديانات الرسمية الثلاث، وفي بعض الحالات تعكس الاختلافات الايكولوجية (البيئية) عند سكان المنطقة. وستكون دراستنا هذه متركزة على سمات ثلاث:

١ ـ الخصب: حيث يمثل أو يسيطر القديسون على قوى الطبيعة والأماكن والأشياء... الخ المتعلقة بمسألة خصب المحاصيل والحيوانات والبشر.

٢ ـ الحياة والموت: ويمثل القديسون الزراعيون هنا الاستمرارية بدعوى الخلود (ايليا والخضر)، أو من خلال دورة الحياة والموت، بمعنى التجدد المستمر للحياة كما تشاهد في النبات. في هذا الجزء نجد التنوع الأعظم لأشكال قديسينا الزراعيين.

٣ ـ القوة والنزعة القتالية التي هي امتداد لسيطرة القديسين على قوى الطبيعة من عالم الخصب والانبات إلى عالم القوة الطاغية متمثلة في العواصف والسيول وما إلى ذلك. وتضم هذه القوة السيطرة اللامحدودة على القدر. وبهذا يصبح القديسون رموزاً للقوة الحربية وحماة للجيوش، كما أنهم يتحكمون بالنشاطات البحرية أيضاً. وهذا التحول في خصائص القديسين الزراعيين هو أيضاً تحول من الاستيطان الريفي الزراعي إلى استيطان المدن وإلى التجارة والعسكرة.

الخصب

من الـراجـح أن الخصب هو الفكـرة المركزية لمذاهب القـديسين الزراعيين. فالحياة الفلاحية في أي مكان لا يمكن تصورها دون طقوس الخصب، والعملية الطبيعية في انتاج الغذاء واستحصاله لم يمكن تخيلها بعيداً عن التكريس الديني قبل أن تصبح علماً وقضية اجتماعية.

اليهودية والاسلام، يبديان استخفافاً بطقوس الخصب (في الـواقـع يكشفـان عن بعض العـداء تجـاهها)، سواء الطقوس المتعلقة بالنبات أو الحيوان، أو قوى الاخصاب للطبيعة. وإن

أحد أهم المواضيع في «**العهد القديم**» هو الصراع الضاري بين الديانة اليهودية وديانة «البعليم» حيث يبدو أن «يهوه» ليس الفائز دوماً لأن القبائل الاسرائيلية كانت تتحول من الحياة البدوية والحربية إلى الأعمال الزراعية. ولم يكن ممكناً مقاومة طقوس الخصب المرتبطة بعبادة الأبعال من قبل بني إسرائيل الذين استوطنوا الأرض وأصبحوا زرّاعاً وفلاحين. ويصح هذا خصوصاً على القبائل الشمالية حيث اختلط السكان الأصليون بالقبائل الاسرائيلية، وحيث الأرض الملائمة للزراعة. وكان انتصار يهوه واضحاً في الجنوب في قبيلة يهوذا بن يعقوب حيث مازالت البداوة وتربية الماشية شائعة*.

مع توالي الأيام كان على يهوه نفسه اقتباس كثير من السمات «الزراعية» من خصومه. ويظل صحيحاً أنه حتى الطقوس والأعياد ذات الأصل المرتبط بالخصب قد أصابها التحول، كما هو حال فصح اليهود الذي تحول إلى عيد ذي ايحاءات تاريخية وسياسية تحيي ذكرى الخروج من مصر أكثر من كونه عيداً لتجدد الطبيعة في الربيع.

قام محرروا سفر التثنية بحشر قصة ايليا في تاريخ إسرائيل بطريقة أعطتها أساساً تاريخياً فضلاً عن المعنى السياسي. ومع

---

* في الحقيقة كانت مملكة إسرائيل الشمالية ذات ثقافة كنعانية في شتى مظاهر حياتها ومعتقداتها ولم تشارك من قريب أو بعيد في صنع الديانة اليهودية التي تطورت في مملكة يهوذا الجنوبية. ـ المراجع ـ

ذلك فان الخصائص الزراعية لايليا واضحة تماماً. والصورة التي يدركها المرء عن ايليا من خلال الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد هي صورة النبي - القديس المالك لزمام السيطرة على المطر، فهو القادر على اغلاق السماء (لوقا ٤ : ٢٥) و «هو صلى للرب أن لا ينزل المطر فلم ينزل المطر على الأرض لمدة ثلاث سنوات وستة شهور. ودعى ثانية فأرسلت السماء المطر وأعطت الأرض فاكهتها». (ملوك أول ١٧ : ١، ١٨ : ١ - ٤٦).

وباعتبار ايليا صانعاً للمطر فقد استعمل الماء على المذابح في صراعه مع كهنة بعل (ملوك الأول ١٨ : ٣٤). وتذكرنا خصائصه بخصائص زفس وبعل كآلهة للسماء والطقس. وفي معظم بلدان أوربا وفي الشرق الأدنى نجد أن مذهب الياس مرتبط بالمطر والغيوم والبرق والرعد[٢٠]. وتزار الأماكن المقدسة لالياس في الشرق وفي اليونان وفي اجزاء أخرى من أراضي حوض البحر المتوسط، خصوصاً أيام الجفاف، من أجل التضرع لقوى القديس لاستنزال المطر. وجبل الكرمل في فلسطين حيث أدى ايليا عمله الفذ كان في الواقع مكرساً لبعل راسي في العصور القديمة[٢١]. ويوجد في وقتنا هذا مزارين على الجبل، واحد لمار الياس والآخر للخضر.

من الميسور ملاحظة تطابق الياس والخضر من خلال القول والفعل. فالفلاحون في فلسطين، وهم يدعون لاستنزال المطر ينشدون:

ياسيدي خضر الأخضر

اسقي زرعنا الأخضر

ياسيدي يامار الياس

اسقي زرعنا اليباس[٢٢]

وفي جميع أنحاء سوريا تعزو المعتقدات الشعبية سبب الرعد والبرق لمار الياس ومار جرجس (القديس جاورجيوس) والخضر ثلاثتهم. ويسبب القديس جاورجيوس والخضر الرعد والبرق بامتطائهم حصاناً عبر السماء. ففي حالة الخضر يحدث البرق من حوافر الحصان وهو يخطو فوق الصخور. وفي روايات أخرى يقوم القديس جاورجيوس بفعل هذا بواسطة رمحه العادي أو الثلاثي وهو يلاحق التنين افتراضاً. أما الياس فيخلف الرعد والبرق بقيادته للعربة النارية عبر السماء. يمكن أن نجد في المنطقة كلها تلك كثيراً من القوالب المتنوعة لهذه القصص، لكنها كلها تشير إلى حقيقة أن المطر والرعد والبرق مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالقديسين الزراعيين.

إن الوصف الأكثر تأثيراً وشاعرية لقوى الانبات عند الخضر نجده في «ألف ليلة وليلة» حيث يقوم الولي الجليل بمساواة الفصول وتتويج الأشجار بالخضرة الملكية وتسيير الجداول الرقراقة وبسط العشب سجاجيد على المروج وتعليق نوره عباءة خضراء على نسيم الأصيل ليلوِّن السماء بعد الغروب[٢٣].

شاعت قوى الخصب للقديس جاورجيوس بشكل واسع في أصقاع أوربة والشرق الأدنى. وفي التقاليد الروسية والرومانية والسلافية وغيرها نجد أن «جاورجيوس الأخضر» هو القديس

الراعي للأغنام والقطعان والخيول والنبات والمطر. فهو يفتح مغاليق الأرض الرطبة بمفاتيحه الذهبية فضلاً عن امتلاكه قدرة الانعام بالذرية على العواقر[٢٤]. وكم من النساء العقيمات في جميع أنحاء الشرق الأدنى يزرن أضرحة القديسين جاورجيوس والخضر والياس، حتى يومنا هذا. كما أنهن ينذرن المال أو الماشية أو حتى أطفالهن للقديس إذا أجيبت دعواتهن[٢٥].

وتنبثق الشعبية الواسعة للقديسين الزراعيين كآلهة للخصب من حاجة الفلاحين لربط حياتهم وسبل معيشتهم بالمقدس. وكما سبقت الاشارة إليه فان الاسلام يبدي رفضاً صارخاً لمثل هذه الأمور. وكيفما كان، فان اسلام العامة يرى في مذهب الخضر بديلاً لهذا التعارض. وعلى الرغم من عدم اعتراف الاسلام الرسمي بهذا المذهب، إلا أنه مع ذلك يغض الطرف عنه بدرجة كبيرة. ولعل السبب في ذلك راجع إلى فقدان سلطة مركزية عقائدية في الاسلام.

أوصدت الكنيسة في مراحلها الأولى الباب في وجه أية محاولة لجعل يسوع كراعٍ للحقول أو المطر أو الخصب عموماً. ومن غير الاعتراف بالقديس جاورجيوس كان من الممكن لهذه الخطوة أن تحول دون الفلاحين وصلتهم المطلوبة مع المقدس المتجسد في قوى الطبيعة. وقد كان الاستثناء الممكن لهذا الموقف المعارض للخصب في الكنيسة هو انتشار العبادة المريمية. بيد أننا نرى هنا أيضاً أن «مريم» ارتقت إلى مرتبة «أم الله» أكثر من كونها الأم ـ الأرض العظيمة. وكان واضحاً أن شعب

الريف لم يكن ينزع إلى لاهوت الكنيسة. ويمكن أن نستشف امكانية التفكير بسمة يسوع الاخصابية في المسيحية في مراحلها المبكرة جداً من خلال مقبوس من مخطوطة مفقودة عن «بابياس» كتبها «إرنايوس» حيث ينسب إلى يسوع الوعد التالي:

الأيام آتية حيث ستنمو أشجار الكرمة ولكل واحدة عشرة آلاف غصن، وفي كل غصن عشرة آلاف غصين، وفي كل غصين عشرة آلاف برعم، وفي كل برعم عشرة آلاف عنقود، وكل حبة عنب تُعصر ستعطي خمساً وعشرين دناً من الخمر[٢٦].

بالرغم من استيعاب المسيحية للكثير من النحل الزراعية إلا أن علماء اللاهوت استبعدوا صورة المسيح عن إطار الخصب. فموت وقيامة المسيح ينطويان على تشابه مذهل بموت وانبعاث بعل - هدد الأوغاريتي[٢٧]. غير أن المسيحية قدمت تفسيراً لا طبيعياً لهذا الحدث: فالهدف هو «الخلاص من الخطيئة» وليس «الخلاص من الفاقة»، الذي كان سيناسب المجتمع الريفي الزراعي أكثر. ولتمثيل هذا الخلاص من العوز تقوم النظم الدينية الرسمية برعاية أو التغاضي عن، أو استيعاب، أو تبني القديسين الزراعيين. وتظل فرقهم ذات أهمية قصوى في المجتمع الزراعي.

القديسون المقاتلون

الفكرة المركزية للخصب التي تربط القديسين الزراعيين بقوى الطبيعة تؤدي إلى عرض القوة والنزعة الحربية من جهة، ومن جهة أخرى الانشغال بقضية الحياة والموت والتضحية والشهادة. ويكشف الرعد والبرق والرياح والمطر كقوى خيِّرة في الطبيعة فيما يبدو عن قوة قتالية متأصلة تتحول أحياناً إلى قوة حاقدة مدمرة. مع هذا فان دورة الخصب في الطبيعة توصلنا إلى نتيجة تظهر في زرع وحصاد النبات مفادها أن الموت شرط مسبَّق للحياة، وأن الشهادة قمة البطولة.

يبدو أن الجانب القتالي للإله أو القديس أكثر شيوعاً في التمثيلات التشكيلية. فموضوعي الصراع وعرض القوة مثلاً على الأغلب بشكل مرئي، مع بقاء فكرة الموضوع المحوري في الملل الزراعية والانبات النتيجة النهائية المرجوة. ومهما يكن الحال فان قوة القتال الهائلة للقديس أو الإله هي التعبير الدرامي لهذه الشخصية، ذلك التعبير الذي يشدد على عدم امكانية التنبؤ بهذه القوة ومن ثم على ضرورة درء شرها ومظاهرها المدمرة.

كانت معظم الصور التي تمثل أبطال الخصب في الزمن القديم أشكالاً تمثيلية للبطل الرمز. وكان غالباً ما يُصوَّر بعل-هدد* كإله للخصب متمنطقاً بأسلحة الحرب، المطرقة والفأس وعصا الصواعق. وقد تطور رمز القوة الأخير هذا إلى الرمح الثلاثي الشهير. ولقد شاهد الكاتب نفسه أيقونات القديس جاورجيوس في كثير من الكنائس السورية وهي تصوره ممتطياً حصاناً مطهَّماً وموجهاً سلاحه، الرمح الثلاثي غالباً، وأحياناً الحربة أو السيف، إلى التنين المتلوي. وثمة شيء هنا مختلف، أو حتى مُحرض للذاكرة، في هذا النموذج من التمثيل، خصوصاً عندما نضع في اعتبارنا أن جميع الأيقونات الأخرى تقريباً لقديسي وشهداء الكنيسة، وخاصة الجزء الأوسط من ايقونة المسيح المصلوب، تشدد على السلبية والضعف. ويبقى

---

* الشائع في الترجمة العربية للاسم هو «بعل - حدد» ولكن كتابة الاسم بالشكل اعلاه جاءت نتيجة لرغبة المؤلف. - المراجع -

جاورجيوس الرمز الوحيد للقوة والقتالية عند المؤمنين. وهو الذي يقوم بدوره المطلوب بالحاح.

السمة الأخرى للتمثيلات التصويرية للقديس جاورجيوس هي إظهار ما هو غير عادي وخارق حيث لا يوجد مثله لدى قديسي الكنيسة الآخرين. فصورة التنين تخلق انطباعاً قوياً، خصوصاً عند الفلاحين. ولا يمكن لأية كنيسة أن تكون ذات تأثير مسرّ بدون الصورة الفروسية للقديس جاورجيوس، فهي تروق للروح القتالية لدى معظم الرجال. ومن غير القديس جاورجيوس فان النزعة النضالية كانت ستفتقد القديس الحامي في الكنيسة المسيحية. لم يفتقر الاسلام واليهودية في تاريخ عقيدتهما إلى المظاهر الحربية للحياة. والمسيحية في فكرتها المحورية عن الإله الميت هي أساساً (مع أنها ليست قيد التطبيق) ديانة مسالمة. وهذا يمكن أن يوضح سبب نيل القديس مثل هذه الدرجة من الشعبية في أوربة وخاصة عقب الحملات الصليبية، فإلى القديس جاورجيوس تعزى مساعدة الصليبيين في معاركهم. ويخبرنا ويليام المالمسبيري كيف شوهد القديس جاورجيوس وديمتريوس «الفارسين الشهيدين» وهما يمدان يد العون للفرنجة في موقعة انطاكية عام (١٠٩٨)[٢٨]. وستكون الحاجة ماسة لذراع القديس جاورجيوس القوية وأسلحته الحادة عند نهاية الدنيا ـ هكذا تطالعنا قصة شعبية في فلسطين ـ عندما يقوم بقتل المسيح الدجال عند باب كنيسة القديس جاورجيوس

في اللدة. فلا المسيح ولا تلاميذه ولا أيّ من آبـاء وقـديسي الكنيسة مُؤمَّلاً منهم اللجوء إلى العنف حتى لذبح الدجال.

فكرة قتل التنين هي واحدة من أهم البراهين على ارتباط مذهب القديس جاورجيوس بالمذهب القديم لبعل - هدد. ومن خلال الـدليل التصويري الذي جاءنا على مر القرون من بلاد الرافدين وسورية والأناضول نرى ان فكرة ذبح الإله للتنين شائعة في جميع مراحـل التاريخ، مع اختلاف في تفسيرها بين عصر وآخر. غير أن وحدة الفكرة أمر لا يمكن دحضه. والطريق طويلة من التفسير المتعلق بنشأة الكون متجلياً في الصراع بين مردوخ وتعـامة فـي بابل القديمة، إلى قصة قتل القديس جاورجيوس للتنين من أجل انقاذ ابنة الملك. على أية حال فان المضامين الأرضية للتنين موثّقة بالدليل في مصادر متنوعة مجموعة من جميع أنحاء العالم. ولا يتسنى لنا تناول هذا الموضوع هنا إذ أنه ينئينا عن موضوع اهتمامنا الرئيسي.

منـاقب الخضـر القتـالية والنضـالية هي أكثـر مغالاة في التقـاليد الشعبية للمسلمين بشتى فئـاتهم. غير أن كفـاحـه لا يتضمن قتل مخلوق اسطوري كالتنين. وبالنظر لعدم جواز تمثيل الشكل الانساني في الاسلام فان التمثيلات التصويرية للخضر معدومة تقريباً. غير أنه تم الاستعاضة عن هذا الدليل التصويري بتقـاليد مكتـوبـة وشفهية أكثر وفرة. فالفلكور المتعلق بالخضر طافـح بالقصص حول قوتـه وشجاعته. والفلاحون في شمالي سورية ينعتـونـه بـ «أبي حربـة» مؤكـدين بذلك على شخصيته

القتالية. ويتم تزيين القصص عن قوة ذراعه بالاشارة إلى صخور معينة كان قد رماها من مسافة مئات الأميال. إحدى هذه الصخور ذات شكل اسطواني بارتفاع يقرب من ستة أقدام ترقد على الشاطىء أسفل قلعة المرقب. وتقوم بعض النسوة بزيارة تلك الصخرة الاسطوانية ـ ذات الرمز الجنسي الواضح ـ للتضرع للولي لمنحهم أطفالاً. فكرة الخصب في النساء هنا هي اندماج واضح مع فكرة القوة المنسوبة إلى القديس الزراعي الذكر.

تبلغ خطوة الخضر، كما تقول بعض الروايات، عدة أميال. وفي بيت حالا قرب القدس ترك الخضر أثراً لقدم واحدة على صخرة يؤمُّها العباد بسبب قدرتها الشافية. وتطالعنا حكاية شعبية تقول أن قيصر روسيا أرسل مرة سفينة حربية لجلب الصخرة إلى حاضرته. نقلت الصخرة إلى يافا ومن ثم شحنت على ظهر السفينة. غير أن الخضر (جاورجيوس في الرواية المسيحية لنفس القصة) أجبر السفينة على التراجع إلى الميناء بواسطة رمحه الضخم[٢٩]، فأعيدت الصخرة، وهي لا تزال هناك محاطة بسياج، ومقدسة عند المسلمين والمسيحيين على السواء.

تعتبر بسالة الخضر كفارس مضرباً للأمثال عند عامة المسلمين. نقرأ عند المؤرخ ابن الأثير (القرن الثالث عشر) قصة فارس عربي عظيم يدعى «أبو محجن» أبلى بلاءً عظيماً في موقعة مع الفرس حتى ظُنَّ أنه الخضر بعينه[٣٠]. كما نقرأ شاعراً يمتدح

انتصارات الخليفة المعتصم، فيشبه قطعه للمسافات الشاسعة بخطوات الخضر:

تناولت أطراف البلاد بقدرة
كأنك فيها تبتغي أثر الخضر

الأدب العربي الشعبي كألف ليلة وليلة وكل القصص الملحمية (حمزة البهلوان، والأميرة ذات الهمة، وسيف بن ذي يزن، وأخرى كثيرة) مليئة بمآثر الخضر التي لا تظهر شجاعته فحسب، بل وحكمته وقوته السحرية أيضاً. ويركز الصوفية على حكمته واحتماله وحضوره الاعجازي، خصوصاً عند الحاجة للعون. وهذا مشابه لما يقوم به ايليا في العالم الأسطوري اليهودي.[٣١]

تقدم القصة التوراتية ايليا، بخلاف بقية أنبياء إسرائيل، كرجل عملي أكثر منه شاعراً أو خيالياً. فأفعاله أحياناً عنيفة جداً دون مبرر ظاهر، كما هي الحال عندما يزهق حياة مئة جندي أرسلوا لاحضاره إلى الملك (الملوك الثاني ١ : ٣ ـ ١٦). ويمكن تبرير ذبحه لأربعئمة وخمسين كاهناً بعلياً بالحماسة الدينية (الملوك الأول ١٨ : ٢٠). أما سلاحه الفتاك فهو نار من السماء. ورغم أنه لا يُمثَّل كفارس أو خيَّال إلا أن عربته وخيوله النارية تبدو أكثر اثارة. وقد تمكن أيضاً من فلق مياه الأردن بضربه للنهر بردائه (الملوك الثاني ٢ : ٨). فالقوة التدميرية والعربة النارية والسيطرة على الأنهار تربط ايليا عموماً بالشخصيات الزراعية الأخرى.

الرمز الآخر لقوة القديسين الزراعيين هو ارتباطهم بالجبال والرؤوس البحرية. فهذه، فضلاً عن خصائص أخرى، تجعل ايليا عسيراً على الانسجام مع المحيط التوراتي. والقصة الأسطورية له تجعله الشخصية الأقل يهودية والأكثر كنعانية في الكتاب المقدس. ونجد أن صلته بالجبل قوية بشكل متميز تذكّرنا بالتوكيد الذي تشدد في وصفه الكنعانيون على أن بعل هو إله الجبال والأماكن الشاهقة ـ وهذه إلى حد ما صفة ليهوه نفسه. تتضمن علاقة ايليا بالجبال انتصاره الساحق على كهنة بعل على جبل الكرمل (الملوك الأول ١٨ : ٢٠) وتجربته على جبل حوريب (الملوك الأول ١٩) اضافة إلى ما جاء في «العهد القديم» حول ظهوره مع موسى على جبل التجلّي (متى ١٧ : ٣).

في سورية، كما في اليونان ومناطق أخرى لحوض المتوسط، تجد مقامات القديس الياس بالكثرة التي للخضر وقد بنيت على الجروف الجبلية الممتدة إلى البحر. ومعظم تلك الجبال التي كانت مكرسَّة لزفس في اليونان هي الآن مكرسة للقديس الياس[٣٢]. وجبل الكرمل المعروف قديماً أنه ضريح بعل أصبح في العصور الحديثة مخصصاً لالياس والخضر[٣٣].

في ضمير الوعي الشعبي المسيحي يبدي الياس معظم خصائص إله الجو، فهو يسيطر على الغيوم والمطر والبرق والرعد، ويمكن لقدرته ان تصبح مدمرة، تماماً كبعل ـ زفس القديم. وللقضاء على المئة محارب استخدم النار السماوية على

شكل برق. ونجد أن السيف اللاهب هو واحدة من خصوصيات الياس في صوره على الايقونات المسيحية.

الجانب الحربي للقديس جاورجيوس هو أيضاً معروف جيداً، خصوصاً بعد تبني الصليبيين المسيحيين المقاتلين له. وما دامت هذه السمة القتالية مستندة أساساً إلى أسطورة جاورجيوس قاتل التنين، فان أصل جاورجيوس الحربي لابد وأن يُفتَّش عنه في مذهب الآلهة المقاتلين القدماء في سورية وبابل. وقد راجت شعبية الكثير من هذه الآلهة مصارعة التنين في الشرق الأدنى، وأشهرهم كان مردوخ وأدد وآشور. ويرجح أن يكون بعل ـ هدد في النصوص الأوغاريتية هو النموذج الأصلي لجاورجيوس مصارع التنين. في وسع المرء افتراض أن مزارات القديس جاورجيوس الحالية على طول الشريط الساحلي السوري كانت في عصور ما قبل المسيحية أماكن عبادة مكرسة لبعل ـ هدد أو لواحد من أضرابه المحليين الكثر. وكان المقام الأشهر للقديس جاورجيوس، دير الحميراء بين طرابلس وحمص على مقربة من نبع متقطع للماء، ذا سمعة طيبة أيام الرومان، ومن المحتمل جداً، في العصور القديمة أيضاً. ويذكر يوسيفوس* أن تيطوس في طريق عودته من القدس قام بزيارة

---

* يوسيفوس مؤرخ يهودي عاش في القرن الأول الميلادي. وضع مؤلفاً ضخماً عن تاريخ اليهود، وكان شاهد عيان على الدمار الأخير لأورشليم على يد القائد الروماني تيطوس عام ٧٠ ميلادية.

خاصة لهذا النبع الذي كان يفيض كل سبعة أيام كما يعتقدون، وهذه إشارة إلى صيته الذائع وشعبيته الكبيرة في ذلك الزمان[٣٤].

الرابطة القوية الأخرى بين القديسين الزراعيين في الأزمنة الحديثة والأبعال السوريين القدماء هي رعايتهم لرجال البحر وسيطرتهم على الشؤون الملاحية. وتشيع تسمية الخضر بـ «خوّاض البحور» وهو الولي الأثير على قلوب البحارة وصيادي السمك على طول الساحل السوري، وخصوصاً في جزيرة أرواد (أرادوس قديماً). ويطلق البحارة على الخضر لقب «الرِّيس». وقد وصلت شهرة الخضر كراعٍ للملاحة إلى الهند حيث يقال هناك أن «رجا كيدار» هو الحارس ضد أخطار الملاحة[٣٥].

لقد كان الأبعال القدماء للساحل السوري آلهة للبحر والملاحة والملاحين. ونجد أن الرقم القديمة زاخرة بالابتهالات لهذه الأبعال، وخصوصاً بعل صور وبعل صيدون، من أجل حماية السفن أو لتحطيم أساطيل العدو. حتى أن الملوك الآشوريين اعتادوا طلب تدمير سفن أعدائهم من بعل السوري[٣٦]. وتظهر بوضوح الشخصية الملاحية لبعل - هدد الأوغاريتي في صراعه مع التنين «يم» (البحر). وقد اعطاه انتصاره على البحر السيطرة على هذا الميدان[٣٧]. وقد قاتل أرباب الغيم والمطر والبرق والرعد الحثيون التنانين والوحوش المروعة. غير أنه لا تبدو أحياناً أساطير الحثيين واضحة فيما يتعلق بانتصار الآلهة على عفاريت البحر[٣٨]. والإله اليوناني «بوصيدون» هو أيضاً إله خصب فضلاً عن خصائصه الملاحية.

ولهذا فهو الأقرب من بين جميع الآلهة الاغريقية إلى قديسينا الزراعيين[٣٩].

لا يزال مزار الخضر ـ جاورجيوس قائماً على مقربة من البحر عند ميناء السويدية على مصب نهر العاصي. ويقع هذا المزار بعيداً عن أي نقطة سكنية على نتوء جبلي مطلٍ على الخليج. ومنذ فترة قريبة فقط كان هناك مصابيح للانارة، المفترض وجودها لارشاد القوارب على طول الساحل. وعلى خليج جونية إلى الشمال من بيروت هنالك مقام آخر للقديس جرجس. وقد أطلق اسم سانت جورج على رأس بيروت وعلى فندق مشهور مطل على ذلك الرأس تيمناً باسم القديس.

لقد ترسخت بشكل كبير الميزة البحرية لكل من القديس جاورجيوس والخضر. من جهة أخرى نجد أن الياس لا يتفق وهذا الاطار الملاحي، اللهم إلا إذا أخذنا قدرته النهرية بعين الاعتبار. من الجدير بالملاحظة هنا هو أن خصم بعل الأوغاريتي كان «يم نهر» أي (بحر نهر). وقد حلَّ الفلكلور الفلسطيني هذه المعضلة بأن أسند مهمة البحر للخضر ومهمة اليابسة لالياس: «الخضر مكلف في البحر وايليا مكلف في البر». وتعكس بعض الروايات العربية هذا التخصيص بأن تجعل البحر ميدان الياس. وباعتبار أن قديسينا هؤلاء هم ورثة للأبعال القدماء، فان ميدان جاورجيوس الأنهار والحقول بشكل أساسي، وميدان ايليا الجبال، والخضر يجوب البحار وكل فضاء رحيب.

الموت والحياة الخالدة

يؤدي اهتمـام الانسان بالخصب إلى تقديس قوة وسلطة الآلـهة من جهة، ومن جهة أخرى يكشف له هذا الاهتمام نفسه عن حتمية المـوت كسبيل لتجدد الحياة. وفي أغلب الحالات يمثـل آلهـة وقـديسـو الجنس البشـري واحـداً فقط من قطبين للفعـل الإلهي: إما القوة والقتالية، أو الشهادة والسلبية. فالأول يتمثل في السمـاء والنجـوم غالباً، والثاني يتمثل في الأرض والظواهر الجوية. ويندر أن نلقى كائناً ذا طبيعة إلهية يجمع في شخصه كلا هاتين الخاصيتين الإلهيتين. ووراء آلهة الطبيعة وآلهة النجوم

نجد الإله التاريخي المجرد لليهودية والمسيحية والاسلام حيث التاريخ المقدس ينزلق على مسار خطي وحيث أن الهمَّ الأكبر الذي يعنى به البشر يقع وراء الموت. التاريخ، بحسب النظرة الـزراعية، ذو مسار دوري، والاهتمامات تتناول موضوع البقاء ورغد العيش على هذه الأرض.

إن أفضـل مثـال لدينا من الأدب القديم عن إله الطبيعة والخصب يقهر بموته موت الطبيعة هو بعل ـ هدد الأوغاريتي. إله الغيوم والأمـطار وسيد الـرعـود والبـروق هذا ينتصر على التنين الإلهي «يم نهـر» فيهـاجمـه بأسلحتـه القـوية ويلحق به الهـزيمـة المهينه. في هذه الأسطورة يماهي هذا الإله ما في التمثيلات التصويرية التي غالباً ما تصوره مع رمح وفأس البرق وهو يثب على جامـوس، أو تصـوره واقفاً على قمة جبل. هذه الفكرة نجدها خصوصاً في الوثائق الآشورية التي تشير إلى «أدد» نظير بعل ـ هدد[٤٠]. لكن نصوص رأس شمرا تقدم لنا بعل ـ هدد في دور يضعـه في مصـاف الشهـداء، إلهـاً ينزل إلى العالم السفلي. وبخـلاف صراعـه مع «يم نهر» نجد بعل يستسلم راغباً مذعناً لـ «موت» عندما يتحداه جاعلاً من نفسه لقمة في فم موت الذي يفاخر بانتصاره:

كحمل جعلته في فمي.

وكجدي انسحق بين فكي[٤١]

كان حوض المتوسط في الألف الأولى قبل الميلاد مسكوناً غالباً بالآلهة التي كانت إما فاعلة مناضلة مثل «زفس ـ جوبيتر» أو

آلهة منفعلة مستسلمة مثل (تموز، أدونيس، آتيس واوزيريس). معرفتنا بمعظم تلك الآلهة وطوائفها وأسرارها جاءتنا من المصادر اليونانية والهيلينسنية والرومانية فضلاً عن كتّاب مسيحيين بعدها. لهذا لا يمكننا التأكد من أن فكرة إله الطبيعة الذي يجمع في شخصه خصائص الإله المنفعل السلبي مع خصائص الإله - البطل القوي لم تكن سائدة في الشرق الأدنى حتى العصور المسيحية. وانه لمن المغري للمتأمل ان يرى استمراراً قديماً لهذه الفكرة في الفرق الزراعية والقديسين الزراعيين.

وفي الواقع فان القديس جاورجيوس قد ضم في شخصيته الميزات السلبية والبطولية في آن معاً.

رغم ان القديس جاورجيوس هو أساساً الراعي للحقول ومصادر الماء والنبت الأخضر والمظاهر الخيِّرة في الطبيعة فانه في نفس الوقت الشهيد والبطل العظيم الظافر. لقد قتل مرات عدة - كما تقول الحكايات الشعبية في جميع أرجاء الشرق الأدنى - وتناثرت أشلاؤه على قمم جميع الهضاب السورية (قارن مع ديونيسوس - زاغروس في اليونان، ومع أوزيريس في مصر). ويفترض أن يكون دير الحميراء قد بني في مكان استقرار رئة القديس. مع كل هذا فهو حي يركب حصانه ويقتل التنين، ويصنع البرق والرعد. ويبدو ان بعل - هدد أوغاريت (الذي يرجع إلى الألف الثانية ق.م.) قد أسقط بشكل ظاهر طبيعة الثنائية على شخص القديس جاورجيوس الحديث الذي يحتفظ بسيطرة

بعل على البرق وقمم الجبال والبحر وقوة الخصب في الطبيعة. وكبعل القديم فهو أيضاً يقتل عدداً كبيراً من المرات، وبذلك فهو شهيد وإله من طبيعة الموت، وبموته ينجو من الموت الأبدي.

من جهة أخرى، وبقدر ما يعنينا من أمر القديس جاورجيوس، ينبغي أن نعترف أن الدور القتالي قد بزَّ دور الإله الشهيد الميت في بعض المناطق مؤخراً. وحتى في الشرق الأدنى يمكننا القول أن القديس جاورجيوس لم يعد يأخذ مكان تموز- أدونيس. ونجد في التقاليد المسيحية أن الاحتفال بموت إله لا يزال متمثلاً في احياء ذكرى (الجمعة الحزينة) الذي يأتي قريباً من يوم القديس جاورجيوس. أما في التقاليد الشيعية فقد حل الاحتفال بموت «الحسين» محل أسطورة «تموز». وبذلك فقد ترك كل من جاورجيوس والخضر خاصية الموت الغامضة جداً من أجل الحياة. ففي التراث المسيحي يقوم يسوع بفعل هذا عن طريق موته ثم عودته من عالم الأموات. ونجد أن «الامام» عند الشيعة مختفٍ في الوقت الحاضر وسيعود للظهور حالما يكتمل الوقت.

على أية حال فان لدينا برهاناً على أنه حتى القرن الخامس عشر كانت ملة القديس جاورجيوس مشابهة، ان لم نقل متطابقة، لملة تموز. ففي الوقت الذي كانت لا تزال طقوس تموز القديمة قائمة، خصوصاً في سورية الشمالية في منطقة حرّان، كان كلٌ من الوثنيين (الصابئة عند المؤرخين العرب) والمسيحيين يؤدون احتفالاتهم بنفس الطراز بتموز و«جرجس» على التوالي.

وقد كتب «ابن وحشية» في عام ١٤٩٨ في كتابه «كتاب الفلاحة النباتية»، الذي يقال أنه ترجمة لمخطوط كلداني لابن القطمي، عن العيد الديني بين الفلاحين الصابئة والمسيحيين يروي فيه قصة تموز الصابيء مقارناً ومساوياً بينه وبين «جوريريس» (جاورجيوس). يقول: «إن قصة تموز. . . في كتاب النباتيين. . . هي نفس قصة «جورس» (جاورجيوس) عند المسيحيين[٤٢]. . . ويتابع المؤلف ذكر الميتات الكثيرة لجاورجيوس بالاضافة إلى تأثيره الكبير على الحياة النباتية.

ويصف ابن الأثير (القرن الثالث عشر) موت جاورجيوس بلغة موازية للغة صلب يسوع: «عندما مات أرسل الله ريحاً عاصفة ورعداً وبرقاً وغيوماً سوداء حتى ملأ الظلام ما بين السماء والأرض. ولعدة أيام ظل الناس في عجب من هذا الأمر. . .»[٤٢] وبحسب ما جاء في تلك الرواية ارتفع الظلام بعد أن عاد القديس إلى الحياة.

الثعلبي في «قصص الأنبياء» أكثر دقة حول محن وبلايا جاورجيوس. فهو يقول أن جاورجيوس قدم من فلسطين وعاش في زمن أحد تلاميذ المسيح، وقد قتل على يد ملك الموصل عدة مرات، غير أنه كان يقوم من الموت بعد كل مرة. وعندما حاول الملك تجويعه حتى الموت جاءته امرأة بقطعة من الخشب اليابس فتحولت خضراء وانبثقت منها جميع أنواع الخضار والفاكهة، حتى الكراسي في قصر الملك اخضوضرت وأورقت.

بعد المحاولة الرابعة لقتل جورجس (جاروجيوس) احترقت المدينة بأكملها معه[٤٣].

تشير هذه الروايات بجلاء إلى هوية القديس جاورجيوس كإله يموت ويبعث، وإلى بقاء هذه الفكرة إلى القرن السادس عشر على الأقل. ومع ذلك فليس واضحاً دور القديس جاورجيوس كمخلِّص، وهو يظهر فقط بصورة باهتة جداً. كان موت بعل ـ هدد يشير إلى تراجع الخصب في الصيف، وأما انبعاثه فقد كان يعني انتعاش الطبيعة في وقت الربيع. والقديس جاورجيوس عند المسيحيين لا يقوم بهذا الدور الأساسي تماماً. ولكن ليس عسيراً، مع ذلك، توضيح هذا التعارض. ذلك أن موت وقيامة المسيح، رغم عرضها بمفهوم مختلف، لا تفرد دوراً تخليصياً آخر للقديس جاورجيوس. وبذلك يتم جزئياً تجنب المزج بين دور القديس ودور المسيح.

فكرة الموت والبعث لا تظهر في روايات الخضر والياس، ما عدا أن الموت قد جانب كليهما تماماً. وفي التعاليم الدينية اليهودية والاسلامية لا يمكن تطبيق فكرة الموت على الألوهية. لذلك يرفض الاسلام الروايات المسيحية عن موت المسيح الذي هو، كما ورد في القرآن، من روح الله. وهذه الروح الإلهية في «عيسى» تجعله في مأمن من الألم والموت، وهو حي خالد إلى الأبد، كما هو حال الخضر بحسب الاعتقاد الشعبي. وهذه الميزة في الخضر هي دلالة واضحة على أصله الإلهي. كما يؤمن بعض الشيعة المتطرفون بأن الحسين لم يقتل حقيقة بل هو فقط

مختفٍ عن الأنظار وأنه لابد وأن يظهر ثانية. والاعتقاد بالامام الغائب أمر شائع بين الشيعة عموماً. والخضر أيضاً يظهر من وقت لآخر لأشخاص معينين.

يجب أن نلاحظ هنا أن المفسرين المسلمين للقرآن والحديث قد أعطوا الخضر والياس بعض الموثوقية، ولكن ليس للقديس جاورجيوس. وهو يذكر فقط على أنه قديس للمسيحيين. ومن الراجح أن سبب ذلك هو ورود اسم الياس - ايليا في «الكتاب»، بينما جاورجيوس لا. ورغم أن الخضر لم يذكر صراحة في القرآن إلا انه يرد في الحديث.

يتخلص ايليا من الموت برفعه حياً إلى السماء، وسيعود ليعلن عن المسيّا (المسيح) حسب الاعتقاد اليهودي الشائع. لكن حتى في القصة التوراتية يكشف ايليا عن قدرة عظيمة للاختفاء والظهور حينما يريد. وقد ارتبط اختفاؤه لأحقاب عديدة بجدب الأرض.

أبدية الحياة خاصية هامة لالياس والخضر. والمسيحيون في سورية يشيرون إلى القديس الياس بـ «مار الياس الحي». وقد فسر فقهاء اللغة العرب اسم الياس على أنه «الآس» الذي هو نبات دائم الخضرة استعمل رمزاً للخلود عند القدماء. ويؤكد الفلكلور العربي على أن الياس والخضر عندما عاشا حتى أول وحي تلقاه محمد أرادا الموت. لكن محمداً أجابهما: «ياخضر واجبك عون أمتي في البر وأنت ياالياس تعينهم في البحر»*(٤٤).

* يؤكد ابن كثير في تفسيره أن ما جاء من أحاديث حول الخضر أنه حي لا يصح منها←

تتمثل دورة الخصب في الطبيعة في صنفين من القديسين الزراعيين، أولهما القديس أو الإله الذي يموت ويبعث، وثانيهما الإله الغائب أو المستوري أو النائم. ويمكن، جزئياً على الأقل، أن يعزى سبب هذا الفرق بين هذين الصنفين إلى الجدور الثقافية والايكولوجية. وللمجتمعات الفلاحية آلهتهم التي تموت وتبعث لتوازي دورة الحياة في النبات، وكذلك للمجتمعات القبلية السائرة على طريق التحول من الحياة الرعوية إلى الاستقرار، آلهتهم وقديسيهم يختفون ويحتجبون وينامون أكثر من كونهم يواجهون الموت. فالنموذج الأول لهذين الصنفين يمكن تقفيِّ آثاره بالعودة إلى الألف الثانية قبل الميلاد حيث نجد بعل أوغاريت يموت في ظلمة أحشاء «موت» ممثلاً بذلك موت النبات. أما عودته إلى عالم الأحياء فتجلب الحياة للوديان، والخضرة للمراعي. وبالمقابل نجد أن «تليبينو» إله الخصب عند مجتمع الأناضول، المؤلف من قبائل مناضلة على طريق بناء الامبراطورية، لا يموت، بل يولي بعيداً ويستغرق في النوم. وكان ايجاده وايقاظه من سباته (بواسطة وخزة نحلة) عملاً عظيماً يمثل عودة النظام والازدهار للمجتمع[٤٥].

ولباب القول فان الرموز الثلاثة للطوائف الزراعية

شيء. وقد احتج لذلك بعض المحدثين بما جاء في القرآن «وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد». وينفي ابن كثير ان الخضر جاء إلى محمد أو حضر عنده أو قاتل معه. ويقول: «لو كان حياً لكان من اتباع النبي». (تفسير ابن كثير م٣، ص ٩٩). على أية حال فالموضوع فيه نظر. ـ المترجم ـ

(جاروجيوس والخضر والياس) تكشف لنا خصائص إله الخصب. وكل واحد منهم ينزع لأن يصبح بطلاً محارباً. غير أن جاورجيوس فقط هو الذي ينال الشهادة ويتذوق الموت. ودوره كقديس يموت وينبعث يحجبه جزئياً عن دور يسوع المسيح كمخلِّص من خلال الموت. وفيما يوصد باب الاستشهاد دون الخضر والياس بواسطة الاعتراضات اليهودية والاسلامية على مبدأ تأليه البشر أو تجسيد الآلهة، فان هذا الاعتراض معبر عنه بوضوح على المستوى الديني الرسمي فقط. ويجد بعض الفلاحين المسلمين شهداءهم ومخلصيهم في القديسين المسيحيين الذين يكنون لهم اجلالاً حماسياً شديداً. وفي بعض الأحيان يبتكرون شهداءهم بتحويل شخصياتهم التاريخية إلى هذا النموذج من الوجود الفوق بشري كما هي حال الحسين.

خاتمة

لا تزال الديانة الزراعية تقليداً حياً في الشرق الأدنى منذ العصور الموغلة في القدم مروراً بالحركة الدينية التوفيقية الهيلنستية إلى العهود المسيحية والاسلامية. ورغم الفرق بين الاسلام والمسيحية والاختلافات بين الطوائف الاسلامية والمسيحية على المستويات اللاهوتية والاجتماعية ـ السياسية، فان المجتمعات الفلاحية، التي تتوزع رسمياً بين عدد من الطوائف، تبقى ملتصقة بالأساس الشعبي للتدين، كما سبقت الاشارة اليه بوجود مذاهب زراعية بينها.

يمثـل القديس جاورجيوس أساساً الخصائص والسمات التي لم يكن المسيح ليأخذها عن الآلهة السورية القديمة. وفي اللاهوت الرسمي لم يجد الاهتمام المباشر بالخصب، والماء، والبحـر والمـلاحـة، والفـروسية والقتـال طريقاً له إلى الصورة المسيحية ليسوع. وبما أن كائناً فوق بشري يظل مرغوباً وجوده مكلفاً بما تعنى به المجتمعات الفلاحية فيما يتعلق بالأرض، فان على هذا الكـائن أن يبقى على قيد الحياة متمثـلاً في شخص القديس جاورجيوس. أما الآن فقد قلَّت منزلته لأن الحاجة إلى رعايته تدنَّت في المجتمع المتسارع على طريق المدنية والتصنيع.

تقدم لنا قصة الخضر طرازاً مشابهاً. فعلى الصعيد الروحي يشدد الاسلام على الايمان القويم والكامل بإله واحد مجرد. وفي مجال الفعل الانساني يكشف الدين الاسلامي عن قانونية صارمة تحتـوي على النـذر اليسير من الأفعـال الطقسية الرمزية. ومع الفتوحات العربية لم يتحول فلاحو الهلال الخصيب إلى الاسلام، ولكنهم فيمـا بعـد أخـذوا بالتحول تدريجياً، خصوصاً بتأثير الطرق الصـوفية التي جعلت دين الاسـلام أكثـر توافقـاً مع عقـائدهم وممـارساتهم، محتفظين مع ذلك ببعض التعديلات المتجسدة بالتوجهات المعبرة عن حاجاتهم الروحية ضمن سياق تقاليدهم وأعـرافهم الـزراعية. فالخضـر «كنقيب للأولياء» يقدم العناصر الاعجـازية والـرمـزية والـطقسية المفقودة في الدين الاسلامي المنهجي، إضافة إلى أن محمداً كصانع معجزات لم يكن مثيراً

كفاية ليروي تعطش الفلاح لما هو خارق، وأن تاريخية محمد الثابتة ومعارضته الصريحة لتأليهه تقفان حائلاً دون جعله ولياً من نفس الطراز الذي يؤمن به الفلاحون. فالجماهير محتاجة إلى ولي لا يموت وله القدرة على التحكم بقوى الطبيعة. وهنا يأتي الخضر ليؤدي هذا الدور، تماماً كما فعل ايليا لبني إسرائيل.

من جهة أخرى فان سرمدية الحياة التي يعزوها المسلمون إلى الخضر، واليهود إلى ايليا، لا تبدو منسجمة مع المفهوم المتسامي للألوهية. وليس عسيراً ملاحظة أن ملة الخضر باقية تحديداً ضمن حيِّز الديانة الشعبية، إذ أن علماء الدين المسلمين لا يسلِّمون بمذاهب القديسين، غير أننا نلاحظ أن القصة الاسطورية لايليا قد وجدت طريقاً لها إلى الكتب المقدسة في الديانة اليهودية. وتقف هذه القصة شاهداً على تأثير العناصر الكنعانية الزراعية على الديانة «اليهوية» للاسرائيليين.

تخفي أسطورة انتصار ايليا على كهنة بعل في ثناياها إقرار حقيقي بشرعية مذاهب الخصب. وبحسب ما جاء في الرواية التوراتية (الملوك الأول ١٨) فان «بعل» إله الخصب المعترف به يخفق في إرسال المطر إلى أرض يابسة عندما تضرع اليه الكهنة بالاشتراك مع «إيزابل» الصورية (بنت ملك صور). لكن عندما يدعو ايليا يهوه ينزل المطر، وبعد ذلك يتم ذبح كهنة بعل. وهكذا فقد تم الاعتراف بقدرة يهوه على قوى الطبيعة، غير أنه يخلص من جعله إله خصب فاعل (تماماً كالأبعال) بمنحه هذه

القدرة لايليا. وقد احتفظ يهوه بمنزلته السامية، إلى حد ما، عن طريق قبول مفهوم الحلول الإلهي في ايليا.

توضح هذه الحكاية الأسطورية التبدل الذي طرأ على إقتصاد «المقدس» كنتيجة لتحول المجتمع من مجتمع رعوي قبلي إلى مجتمع فلاحي في مملكة إسرائيل الشمالية[٤٦]. أما بالنسبة لمملكة يهودا الجنوبية فان هذا التحول إلى الاقتصاد الزراعي المترافق مع معتقدات «زراعية» قوية لم يكن تاماً. وقد أعطت مشكلة البقاء «القومي» والسبي البابلي تطوراً ذا منحى سياسياً لديانة يهوذا هيمن على «الكتاب المقدس» وأثر على النزعات الدينية فيما بعد.

تكشف جميع الديانات المدعوة بالديانات السامية* عن توجه سياسي، خصوصاً في اليهودية والاسلام والمسيحية الكنسية. فهي تؤكد على المشاركة في جميع المجالات ضمن هيكل منظم للمؤمنين، وتشدد على معنى التكافل والولاء لهذا الهيكل. وبهذا يتضح أن استشراف هذه الديانات اجتماعي - سياسي. ومن جهة أخرى ان الديانة الزراعية الشعبية هي مجموعة من التقاليد غير المقننة تؤكد موضوع البقاء والنفع الفردي والجمعي. إذاً فهي ديانة ذات استشراف اجتماعي - اقتصادي.

ومع مجيء عصر الامبراطوريات والأديان المنظمة ظل

---

* راجع حاشيتنا عن مفهوم التسامي في الصفحة (٢٦). - المراجع -

الفلاح تحت تأثير فكرة البقاء والمنفعة حتى يومنا هذا. ومن النادر جداً أن ينتج ولاؤه للسيد المطلق السياسي، وللسلطة الكنسية عن حسٍّ سياسي متطور. فهو بالأصح موقف طقسي، أي جزء من اهتمامه بالبقاء، ورهبته واحترامه للقوة الدنيوية منها والخارقة. من جهة أخرى فان القبول أو التسامح بوجود القديسين الزراعيين وطوائفهم من قبل «السلطات الدينية» يضمن ويعزز ولاء الجماهير للتركيبة الدينية الرسمية.

يلفت هذا الانتباه إلى مظهر هام جداً من مظاهر الديانة الزراعية وهو النزعة النفعية، وليس المقصود بهذا أن الفلاح لا يعنى بالمقدس إلا بطريقة منفعية، أي ليضمن خصوبة حقله ووقاية نفسه من الجوع والكوارث الطبيعية الأخرى، بل هو مجرد إلماح إلى أن السمة المنفعية للمقدس هامة جداً لدى العامة. ولأن العقيدة الدينية الرسمية لليهودية والمسيحية والاسلام لا تشبع هذه الحاجة بشكل كامل (من وجهة نظر الفلاحين على الأقل) فقد ظل القديسون الزراعيون للقيام بهذه المهمة المطلوبة. وقد قبلت «السلطات الدينية» أو تسامحت ببعض الطوائف الزراعية لأسباب تتعلق بالسيطرة والقوة.

في المجتمع الزراعي نجد «أن الإلهة ـ الأم العظيمة، والآلهة القوية القادرة أو شخصيات الخصب ذات ميزة أكثر دينامية وانفتاحاً للناس من الإله الخالق»[٤٧]. يمكن أن يجلَّ الفلاح الإله الخالق، لكن من على بعد دائماً. وقد قدس هذا الفلاح آلهة المطر والبرق والرعد القريبين من الأرض، والأكثر فعالية

وعملية، بطريقة أكثر حميمية. فالظواهر الجوية الملموسة هي العنصر الكوني الذي يتحكم مباشرة بالحياة على الأرض. وهكذا فإن إله السماء يمكن أن يكون الأب العظيم أو الخالق، لكن إله الطقس والعاصفة والغيوم والريح والمطر هو البطل - الابن الناشط والفاعل.

الإله الأب في المسيحية هو، بشكل أو آخر يشبه الطراز الآلهة البعيدة. ويكشف الإله - الابن عن نشاطه في مجالات لا تمت في غالبيتها إلى الهموم المباشرة للفلاحين، ربما ما عدا دوره كشهيد الذي يربطه بشكل غامض بسر دورة الحياة. وهذا يمكن أن يوضح الأهمية الكبيرة للفصح بالمقارنة مع عيد الميلاد الأقل احتفاءً به لدى الفلاحين المسيحيين، وخاصة في الشرق. وهنا يقف اللاهوت الرسمي في طريق يسوع «الزراعي» تماماً عن طريق الاصرار على الدور التاريخي والأخروي للمسيح. وهكذا يجد الفلاح في القديس جاورجيوس «القرب» وعمق العلاقة التي لا يستطيع إدراكها بوضوح في يسوع بسبب سماكة حاجز التعليل اللاهوتي المعقد لشخص المسيح. بيد أن المجتمعات الزراعية المسيحية قامت بادخال عبادة مريم أم الله حالّةً مكان الإلهة - الأم العظيمة عند القدماء في مساهمة كبيرة من أجل نشر المسيحية بين سكان حوض المتوسط وأوربة.

يقرّ الاسلام بنموذج واحد فقط للإله، الله الذي ليس كمثله شيء يتصوره البشر. والعقائد الاسلامية تعطي قليلاً من الحرية في تفسير طبيعة الإله. وفكرة كون الله ابناً أو شهيداً هي هرطقة

صرفة. وبذلك يرى الفلاح في الخضر الطراز الإلهي القادر والفعال الذي يمكنه إرواء الحاجة إلى التقاربية والواقعية مع المقدس. ونجد عند الشيعة أن فكرة الحسين بتأكيدها على مبدأ الشهادة يمكنها اشباع بعض من التوق الشعبي لعمل فوق بشري نافع.

وهكذا فان الديانة الزراعية لا تعكس الصفة المطلقة للالوهة في عالم الانسان، بينما تفصح الاعتقادات المسيحية والاسلامية للفلاحين عن هذه الصفة. ان ما جعل «الديانات السامية» تترك فراغاً في الجو الروحي للمجتمع الريفي هو اخفاقها في التنازل من أجل تجسيد الخصائص المحدودة والمباشرة والعملية والمنفعية للمقدس. مما جعل الديانة الزراعية تقوم بمحاولة سهلة وذكية لملء هدا الفراغ الروحي. ففي اليهودية تم ذلك بقبول توفيقي للإله الزراعي ايليا في الدين القانوني. وقد تمت أنسنته وتصنيفه في فئة الأنبياء. مع ذلك، وبخلاف انبياء الكتاب المقدس الآخرين، استبقى لديه الخصائص فوق الانسانية، والسمات الإلهية الأكثر عجائبية وهي تلك المتعلقة بالحياة الأبدية. أما في الاسلام فكان سد الثغرة الروحية عن طريق التسامح باضافة معتقدات وطقوس شعبية خارجية مشكوك في صحتها. وأخيراً في المسيحية كانت الديانة الزراعية عنصراً أساسياً ضمن مؤسساتها، وقد قبلت الكنيسة المتطورة كثيراً من المذاهب والمعتقدات الزراعية، حتى أنها قامت بدمجها وتوحيدها.

يبقى أن نقول أن كون بعل ـ هدد الاوغاريتي ، إله الظواهر الجوية والأرض العظيم ، نموذجاً بدئياً هاماً ، هو الذي يبقيه في الثقافات الريفية للشرق الأدنى حياً في الآلهة الزراعية . ولقد أصبح نبياً في اليهودية، وقديساً في المسيحية، وولياً في الاسلام .

الهوامش

(١) في الامبراطورية الرومانية كان التنافس بين المذاهب الدينية، الذي غالباً ما كان مصدره الشرق، نزاعاً بشكل رئيسي بين مذهب «ميثرا» المحبب لدى الجند ومذهب يسوع (كان لمذهب إيزيس أيضاً شعبية كبيرة وقد حل محله مذهب مريم). وقد بدا أن ميثرا قد انتصر على يسوع الذي كان من ضمن أتباعه سكان المدن رجالاً ونساءً (لم يكن مسموحاً للنساء الانضمام إلى طائفة ميثرا). ولعل أحد أهم أسباب انتشار المسيحية الأولى هو تبنيها للطائفة المريمية جنباً إلى جنب مع طائفة يسوع. وهذا ما جعلها تناسب قسماً أكبر من الناس. فقد جمعت بين عناصر الميثروية وعناصر الايزيسية. وقد ظل الفلاحون الأوربيون، ولوقت طويل، يخلطون بين صورة ايزيس ممسكة بحورس وصورة العذراء والطفل. لكن الانتصار النهائي ليسوع على ميثرا كان بسبب قرار قسطنطين طلب تأييد المسيحيين له في صراعه مع خصومه. ومنذ ذلك الحين، ومع صيرورة المسيحية الكنسية الدين الرسمي للامبراطورية، توطد امتداد الديانة المسيحية في جميع أنحاء اوربة.

(٢) Edward Gibbon, Decline and Fall of the Roman Empire, Chicago 1952, Vol. I. p. 322, 358.

(٣) Butler's Livesn of the Saints (1956), Vol. II, p. 150.

(٤) راجع :

- K. Krumbacher, Abhandlunger des König. bayerischen Akad, XXV, II. 3.
- H. Delahaye, Les Légendes gréques des saints militaires, (1909), 47 - 76.
- E. A. Wallis Budge, St. George of Lydda, (1930).
- G. E. Hill, Saint George the martyr (1915).
- G. J. Marcus, Saint George of England (1929).
- Clermant Ganneau, Révue Archéologique, n. s. XXXIII (1876), pp. 196 - 204, 72 - 99.
- C. S. Hulst, Saint George of cappadocia in Legend and History (1909).
- Scharf, Archaeologia XLIX (1885), pp. 243 - 300.
- Gordon, Saint George, Champion of Christendom (1907).
- Bulley, Saint George for Merrie England (1908).
- Rene Dussaud, Histoire et réligion des Nosairis (1900).

(٥) Pauly - Wissowa, Real - Encyclopädie der classichen Altertu - mswissenschaft (1953).

(٦) Cf. Smith, Dictionary of christian Biography (1880), Vol. I, p. 646.

(٧) Calvin, Institutes, iii, 20, 27.

(٨) اسم «الولي» يأتي بأشكال متنوعة في كتابات الباحثين وفي اللهجات الشعبية. فبعض العلماء يشيرون اليه باسم «الخضر»، بينما في بعض اللهجات يلفظ «الخُضر». مع ذلك فالتسمية الشائعة هي «الخِضْر» وهي التسمية المستعملة هنا في هذه الدراسة.

(٩) للمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع راجع :

J. Friedlaender, Die Chadirlegende und Alexanderroman (1913), pp. 61 - 107.

وحول نفس الموضوع راجع: Pope, El in the Ugaritic Texts, pp. 78 ff
وكذلك موضوع الخضر في Encylppedia of Islam

(١٠) انظر «الخضر وترافاغان» في C. Virolleaud, Révue Asiatique (1953), p. 163

(١١) الثعلبي «قصص الأنبياء» القاهرة ١٣١٤ هجرية، ص ١٦ .

(١٣) Smith, Dictionary of Christian biography Ii, p. 647.

(١٤) S. Lyde, The Asian Mystery (London 1860), p. 174.

(١٥) Carra de Vaux, in Encyclopedia of Islam I, p. 1047.

(١٦) Malals, Chronicles, bk. VIII (translated by Spinka and Downey, Chicago 1940), p. 13.

(١٧) حول موضوع مساواة بعل ـ سابان (زافون) بزيوس كاسيوس راجع:

- J. W. Jack, The Ras Shamra Tablets, Thier Bearing on The Old Testament (1935).

- Eissfeldt, Baal Zaphon, Zeus Kasios und der Durchzug der Israeliten durchs Meer (1932).

- R. De Langhe, Les texts de Ras Shamre - Ugarit et leurs rapport avec le milieu biblique de l' Ancien testament, (1945) II, p. 239 ff.

(١٨) Goetze, Bulletin of the American School of Oriental Research, LXXX (1940), pp. 32 - 34.

(١٩) ثمة أمثلة عديدة عن وجود التواريخ الوثنية في التقويم المسيحي. منها: أن يوم الفصح يصادف تاريخ احتفال مماثل بالإله أتيس الفريجي ذي الشعبية الكبيرة في روما. وبالطبع يقع هذا التاريخ في وقت الاعتدال الربيعي. ولذا فانه يحتفل به بشكل واسع في معظم الثقافات الأخرى. وقد حل عيد صعود العذراء في منتصف آب محل عيد الربة ديانا. وعيد القديس يوحنا المعمدان في حزيران خَلفَ أعياد الماء الأدونيسية في منتصف الصيف. وأخذ عيد جميع الأرواح مكان عيد الأموات السلتي. وعيد القديس جاورجيوس في الثالث والعشرين من نيسان، فضلاً عن مصادفته ليوم الاحتفال بزيوس كاسيوس، فانه هو أيضاً تاريخ للاحتفال بالربة «بالس» التي سَماها الرومان فيما بعد «دي روما». لكن يبقى المثال الأهم وهو تبني الكنيسة للخامس والعشرين من كانون الأول كعيد لميلاد يسوع النصاري.

وقد كان هذا تاريخ ولادة إله الشمس وكثير من الآلهة الفارسية والفينيقية والمصرية وحتى التيوتانية بهذا الإله حيث يظهر في وقت الانقلاب الشمسي الشتوي، وهو وقت الاحتفال «بعودة الشمس من الجنوب».

(٢١) حول طائفة الياس في اليونان وأوربة الشرقية انظر كتاب:

A. B. Cook, Zeus, (1914 - 40(, Vol. pp. 182 ff.

Dussaud, Syria XXIX (1952), p. 385 . (٢٠)

(٢٢) ت. كنعان، «القديسون والمقدسات المحمدية في فلسطين»، ١٩٢٧، ص ٢٣٢.

(٢٣) راجع ترجمة ي. بويس ماذارس لكتاب ألف ليلة وليلة، ١٩٣٠، م٤، ص ٨٣.

(٢٤) للاستـزادة حول القـديس جاورجيوس في الفلكلور الأوربي راجع كتاب فريزر «الغصن الذهبي»

Frazer, The Golden Bough, (1922), Vol. II, p. 333, 344 ff.

(٢٥) قارن بمصدر ت. كنعان السابق ص ١٣٧، وكتاب

Charles Vellay, Le culte te les d' Adonis - Tammouz dans l' Orient antique (1904), p. 186.

(٢٦) Irenaeus, Haer, v. 33, 3, quoted in v. Ferm, Encyclopedia of Religion (1959, p. 491.

(٢٨) النصوص الأوغاريتية حول موت بعل - هدد في:

C. Gordon, Ugaritic Handbook (1947), Ugaritic Literature (1949).

وكذلك G. R. Driver, Canaanite Myths and Legends (1956),

وكتاب أنيس فريحة «ملاحم وأساطير من أوغاريت» الجامعة الأمريكية في بيروت ١٩٦٦.

انظر كذلك: J. B. Pritchard, Ancient Near Eastern Texts Related to the Old Testament (1955)

و Gaster, Thespis(1950). J. W Jack,The Ras Shamra Texts (1935)

Gesta Regnum II, 420. (٢٧)

(٢٩) T. Canaan, Mohammedan Saints, p. 79, Hanauer, Folklore of Holy Land, pl. 52.

(٣٠) ابن الأثير، كتاب الكامل في التاريخ، طبعة ليدن ١٨٦٧، ص ٣٦٩.

(٣١) الهمذاني (ابن الفقيه)، كتاب البلدان، طبعة ليدن ١٨٠٢، ص ٥٢.

(٣٢) قائمة كاملة بهذه الأسماء في اليونان موجودة في كتاب:

A. B. Cook, Zeus, Vol. I pp. 177 ff

(٣٣) حول جبل الكرمل كجبل مقدس انظر:

eissfeldt, Der Gott Karmel (   )

و «La fete de Saint Elie au Mont Carmel» في كتاب:

Jaussen, Revue Biblique (1924), pp. 249 - 59.

(٣٤) Josephus, De Bello Jud, vii, 5, I.

(٣٥) راجع فصل «الميثولوجيا الهندية» في كتاب: A. Berriedale Keith, The Mytholo-gy of All Races, vol. VI, p. 235.

(٣٦) D. Luckenbill, Ancientrecords of Assyria and Babylonia

(٣٧) نص وشرح ما يتعلق بمعركة «بعل» و «يم» في كتاب:

Driver, Canaanite Myths and Legends, pp. 80 ff.

(٣٨) حول الديانة الحثية راجع: O. R. Gurney, The Hittitees (1952), pp. 132 - 177.

وكذلك ferm, Forgotten Religions, pp. 80 ff.

و G. Furlani, La Religione degli Hittiti (1936).

(٣٩) اسم «بوصيدون»، الذي ليس له أصل أكيد، يمكن أن يكون قد استخدم للاشارة إلى إله مستعار من الشواطىء السورية. والتشابه بين اسم بوصيدون واسم بعل صيدون رغم كونه غير ثابت لغوياً إلا انه مع ذلك ممكن اعتباره. ويظن بعض فقهاء اللغة ان الأسم يعني «زوج الأرض» جاعلين منه إله خصب. ويدعم وظيفة الخصب هذه أنـه كان أيضـاً إلـه ينـابيع المـاء والجـداول. وفي المستـطاع استنتاج صلات أخرى بقديسينا الزراعيين من تسمية بوصيدون «مُزَلْزِل الأرض».

راجع مقال E. Wust في:

Pauly Wissowa, Real - Encyclopädie der classichen Altertum - sswissnschaft (1935), vol. 17, col 446 - 557.

(٤٠) للأطلاع على أسماء وخصائص «أدد» الأشوري انظر:

H. Schlobies, Der akkadische Wettergott in Mesopotamien (1925).

(٤١) صراع بعل وموت .Driver, Canaanite Myths, pp. 102 - 109
أصبح بل مردوخ أيضاً شخصية توفيقية لإله منفعل عدواني. وثمة أمثلة عن الدور الثنائي في ميثولوجيات أخرى. فمثلاً «حوتزلبوختلي» روح الذُرة في الميثولوجيا الازتكية هو إله يموت وإله حرب وشمس مولود من أم عذراء. راجع:
Spence, The Myths of Mexico and peru (1927), pp. 73 ff.

D.

(٤٢) النص الأصلي والترجمة الألمانية موجودان في:
D. A. Chowlson, Uber Tammuz und die Menschenverehrung bei den alten babyloniern (1860), p. 41 - 49.

(٤٣) ابن الأثير، «الكامل في التاريخ» طبعة ليدن ١٨٦٧، مجلد ١، ص ٣٦٧.

(٤٤) الثعلبي، «قصص الأنبياء»، القاهرة ١٣١٤ هجرية، ص ٢٤٤ - ٢٤٥.

(٤٥) قارن مع مقال أ. ج ونسنك «الياس» في Encyclopedia of Islam
هذه إشارة إلى تبادل أدوار الخضر والياس كما وردت في روايات أخرى. فالبحارة المسلمون، في فلسطين مثلاً، يدعون أن الخضر هو راعي البحر، بينما مسلمو الداخل يفضلون منحه مسؤولية البر.

(٤٦) - Goetze, in Near Eastern Texts Relating to the Old Testament, pp. 126 f.
- Gaster, Thespis, pp. 353 ff.
- Guterbock, in forgotten Religions, p. 101.

(٤٧) قارن مع: M. Eliade, The Sacred and the Profane (1959), p. 126

الفهرس

مقدمة عامة في طقوس الخصب	٥
مقدمة المؤلف	٢١
القديسون الزراعيون	٣٥
الخصب	٤٧
القديسون المقاتلون	٥٣
الموت والحياة الخالدة	٦٣
خاتمة	٧٣
الهوامش	٨١

ان رصد الواقع الديني في الشرق ليذهل المرء جراء التنوع الهائل للانتماءات الدينية والطائفية. وأكثر من أي مكـان في العـالم الغربي، نجد ان الطيف الديني في الشرق الأدنى يغمر الديانات الثلاث اليهودية والمسيحية والاسـلام بمجمـوعـة ضخمـة من الطوائف والمذاهب والـطقـوس السرية. من جهة أخرى، فاننا نحس وجود مسارٍ خفي للتدين بين سكان ارياف هذه المنطقة لا يتفق وهذه التقسيمات الظاهرة. فالفلاحون من جميع الملل الدينية يؤمون الأماكن المقدسة نفسها. يتعبدون ويقدمون الهبات، كما يشتركون في معتقدات وأساطير شعبية تتعلق بقوى الطبيعة والمحظورات والعبادات والنذور. ودراسة التفاعل بين الأديان الشعبية والأديان الرسمية يساعد على تسليط الضـوء على تاريخ الحركات الـدينية في هذه البقعـة، وأيضـاً على فهم التيارات السيسيولـوجية التي تجري خلالها.

«من مقدمة المؤلف»

دار الكندي
للترجمة والنشر والتوزيع

تصميم الغلاف: رضا حسحس